منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (4619) السنة السابعة عشرة - الأربعاء (26) شباط 2020

WWW. almadasupplements.com

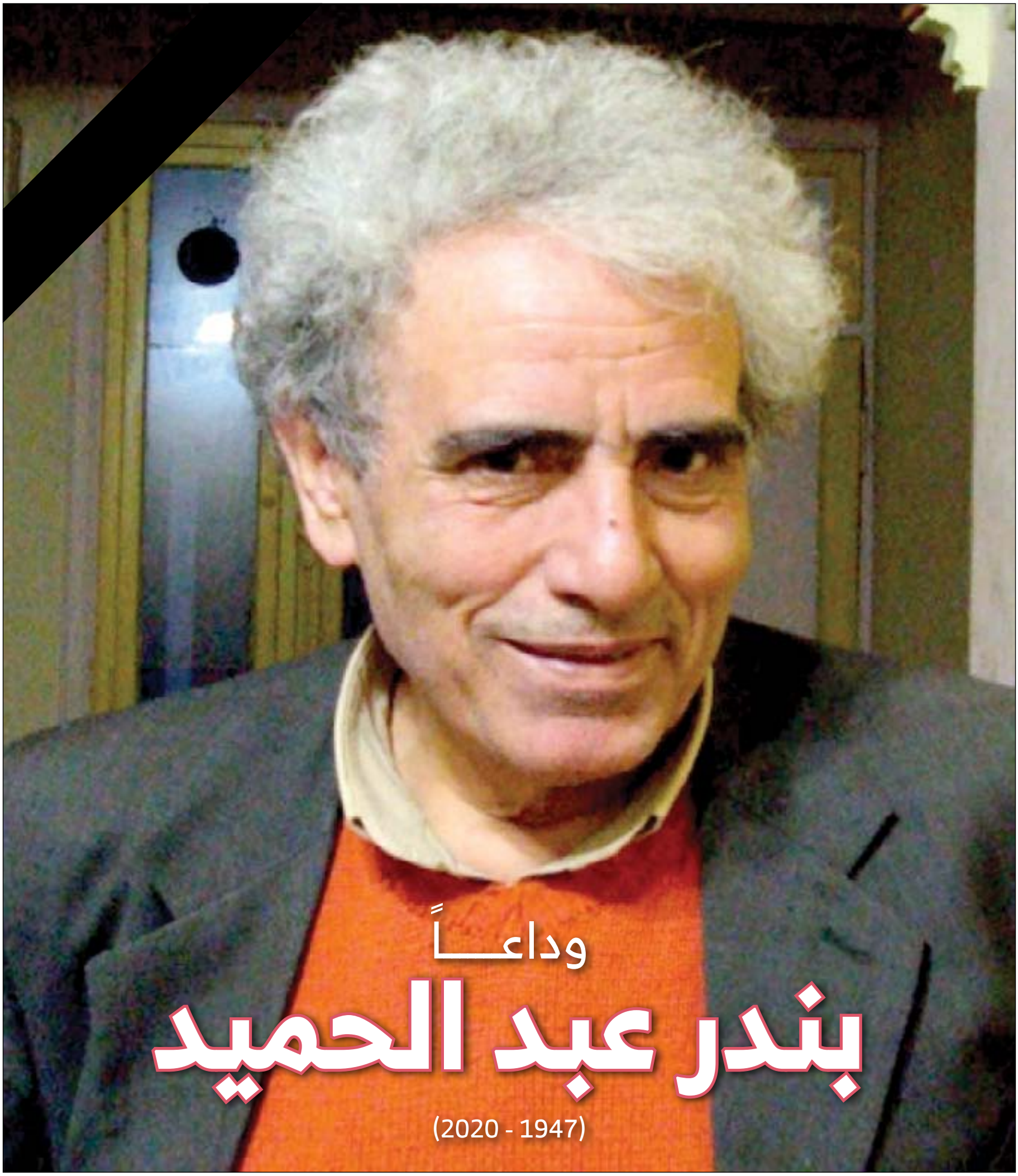

وداعـــاً

بندر عبد الحميد

(2020 - 1947)

البدوي القدّيس وسم دمشق كلها بحضوره

بندر عبد الحميد... نصف قرن من ثقافة الظّل

شاعر كوزموبوليتي زاهد بالضوء والمنابر، كتب آلامه بنبرة ساخطة ضد كل ما يحدث في الكوكب. قبل أيام، رحل بندر عبد الحميد في شقته في العاصمة السورية، بعدما كرّس اسمه شاعراً طليعياً وأحد أبرز أصوات السبعينات. لاحقاً، انكفأ نحو السينما بوصفها مصنعاً للخيال، قبل أن يصمت تماماً في السنوات الأخيرة، أو أنه كان يكتب قصائد بشكل متقطّع، على أمل بصدور أعماله الكاملة التي لم تُنجز إلى اليوم.

خليل صويلح

ما الذي سنفعله الآن في غياب بندر عبد الحميد (١٩٤٧– ٢٠٢٠)؟ سنفتقد ذلك الحضور الأسر إلى الأبد، وسترتبك خطواتنا ونحن نعبر ذلك الشارع الضيّق في الصالحية، من دون أن ننعطف إلى بيته التاريخي في منتصف الشارع، البيت الذي كان لا بد من زيارته كي تكتمل صورة الثقافة السورية المضادة بكل أطيافها وسجلاتها المتناحرة، بزهوها وانكساراتها، تبعاً لصعود وانحدار الخط البياني للثقافة. فهذا المكان العجائبي هو «ترومتر» البريق وانطفاء الشعلة، ملجأ الغرباء والعابرين، ههنا متحف الظل، لا تكتمل الصورة إلا بزيارته، ومباركة عتبته، ورائحة الألفة التي يمنحها لك هذا البدوي الذي لم ينكر وشم معصمه مرّة واحدة.

شيوعيون وبعثيون، مؤمنون وملحدون، سينمائيون ومسرحيون وشعراء، تحت سقف واحد عابر للأجيال والأفكار وقصص الحبّ، فيما تتجاور على الجدران صور غيفارا ومارلين مونرو ومایاكوفسكي في حوارات صامتة وسريالية بفعل كولاج حاذق. طائر الحجل الذي غادر بادية الجزيرة السورية ذات يوم بعيد إلى دمشق، من دون أن يفقد رائحة الهال، أو يبدّل خفق أجنحته، كما فعل آخرون في وضح النهار... اختار الهامش بكامل رضاه، انسجاماً مع عبثيته وعدميته ونفوره من الأقفاص. لم يقف يوماً فوق منصّة تكريم، فيما كان الأنصاف والأرباع يتوافدون إلى الوليمة. كان ملاذاً للحرية بأوكسجينها الأقصى، في غرفة بلا جدران، وكان كتفاً نتكئ عليه جميعاً، من دون أن نفكّر يوماً بأنه سيغيب. مات بهدوء يشبه طيفه الناحل. مات وحيداً، فجر الاثنين، لتكتشف بعد ١٦ ساعة بأنه أصيب بنوبة قلبية، من دون أن يسعفه أحد.

آخر أعماله «ساحرات السينما» الذي يعتبر انطولوجيا ضخمة لنجمات سينما الزمن السعيد

أول من أمس، كان صاحب «إعلانات الموت والحريّة» يرقد في برّاد الموتى في «مستشفى المجتهد» في دمشق، كما يحدث للموتى، فيما كنّا نائهين في الشارع، أمام مرسم جبر علوان مكان إقامته الأخيرة، ننتظر تقرير الشرطة عن حادثة موت عادي. لن يعود إذاً، إلى مسقط الرأس على بعد ألف كيلومتر، ليدفن هناك محاطاً بأشجار الحرمل البري والسلماس، إنما في مقبرة الغرباء في دمشق. لا تكفي ورقة النعي كي تطوي حياة كائن استثنائي وسم دمشق كلها بحضوره. دمشق الأخرى يتيمة أمس واليوم، ذلك أن بندر عبد الحميد صنع دمشق أخرى بأمتار مربعة قليلة، وأطلق فراشاته إلى كل الجهات. كان صمته إجابة على وجع مقيم في الضلوع، ينصت إلى الآخرين، كأنه الضيف لا المضيف. يكتفي بعبارات مبتورة في وصف جنازة البلاد، كان يدوّي على مهل مثل مصابيح المدينة، نائياً بنفسه عن السجالات الساخنة، أو المواقف النارية، مكتفياً برفع راية الحرية كمسلك حياتي لا يحيد عنه، فهذا شاعر كوزموبوليتي زاهد بالضوء والمنابر. يكتب آلامه بنبرة ساخطة ضد كل ما يحدث في الكوكب، وهو يرنو إلى احتضاره عن كثب، بعدما خبر باكراً عتمة البلاد في سجن «الشيخ حسن» قرب قلعة دمشق بتهمة رقابية أثناء عمله في إحدى الصحف المحلية. هكذا اتجه إلى السينما ليدير مجلة «الحياة السينمائية»، غارقاً بين صور نجمات العصر الذهبي. وسوف يترجم إحدى أجمل قصص وليم ساروبان «عزيزتي غريتا غاربو»، قبل أن يطلق سلسلة «الفن السابع» التي أصبحت اليوم أرشيفاً ضخماً للمكتبة السينمائية العربية. انكفأ نحو السينما إذاً، بوصفها مصنعاً للخيال، فيما استمر في كتابة الشعر كواحد من أبرز شعراء السبعينيات، قبل أن يصمت تماماً، في السنوات الأخيرة، أو أنه كان يكتب بشكل متقطع قصائد ستضيع وسط فوضى مكتبته الضخمة، وسنقتنص بصعوبة إحدى قصائده الأخيرة، على أمل بصدور أعماله الشعرية الكاملة التي لم تُنجز إلى اليوم. يقول: «نحن هنا نقرأ ونكتب ونرسم/ نشرب القهوة في الصباح الباكر/ قبل أن تختفي النجوم/ وننتظر الربيع القادم، دون الأغاني العسكرية والأعلام السود». بهذه السطور لخّص بندر عبد الحميد مكابداته في الحرب، ثم أدار ظهره للمذبحة العلنية، مكتفياً بسخطه الجوّاني على فصول الكارثة التي كانت تحفر في أعماقه مثل دمّلة قيد الانفجار. نحكي عن الشخص المرهف وفضائله، وننسى منجزه الأدبي بوصفه شاعراً طليعياً، أسس للموجة الثانية في قصيدة النثر، بعد تجربتين إيقاعيتين نافرتين هما «كالغزالة كصوت الماء والريح» (١٩٧٥)، و«إعلانات الموت والحرية» (١٩٧٨)، فيما كانت مجموعته الشعرية «احتفالات» (١٩٧٩) عتبة تأسيسية مدهشة ومفارقة ونوعية لقصيدة النثر، والتي سبقع في غوايتها شعراء كثر من الجيل اللاحق، وصولاً إلى «مغامرات الأصابع والعيون»، و«كانت طويلة في المساء»، و«الضحك والكارثة»، و«حوار من طرف واحد».

وسيعود إلى مناخات الجزيرة السورية في رواية يتيمة هي «الطاحونة السوداء»، بالإضافة إلى كتب سينمائية كان آخرها «ساحرات السينما»، وهو انطولوجيا ضخمة لنجمات سينما الزمن السعيد.

لكن ماذا لو كتب بندر عبد الحميد ذكرياته عن هذه الغرفة التي عبرها المئات؟ كان يهزّ رأساً بوعد غامض، لن يفي به لا حقاً، وربما كان محقّاً، فهو يحتاج إلى دليل هاتف ضخم كي يورد أسماء ضيوفه، شرقاً وغرباً. عدا كبار الكتّاب السوريين، لن تستغرب أن تجد يابانية تدرس اللغة العربية في دمشق، أو يمنياً منشقّاً، أو عراقياً لجأ إلى البلاد، أو بدوياً من قبائل الجزيرة، أو مصرياً أتى في رحلة خاطفة، أو هنديا، أو قبطانا متقاعدا، أو صعلوكا لم يجد مأوى، أو عاشقاً محزوناً. وفي المقابل، سيسجّل الآخرون ذكرياتهم عن زيارة لهم إلى دمشق، كيف اكتشفوا الألفة في بيته، كأن الزيارة لا تكتمل إلا بالحجّ إلى هذا المكان والطواف حوله.

تعتبر مجموعته «احتفالات» (١٩٧٩) عتبة تأسيسية مُدهشة ومفارقة ونوعية لقصيدة النثر

في ظهيرة قديمة، وإثر زيارة جماعية له (محمد ملص وعادل محمود وكاتب هذه السطور)، كان الشجن في أوجّه، ونحن نرى رمل أيامنا يتسرب من بين الأصابع، في مدينة مغدورة ومعتمة وكئيبة، كتبتُ حينئذ «نصف قرن من ثقافة الظّل بمشهديات مُتبدّلة على الدوام، مثل بكرات فيلم تدور في صالة معتمة، نظراً إلى غياب مثقفين بارزين كانوا جوهر الثقافة السورية وأسباب حراكها وبهجتها. كان محمد ملص الذي بدأ يتردّد إلى المكان بعد غياب سنوات عنه، يتحسّر بأسى على حجم العطب الذي أصاب أحلام ذلك الجيل، وكيف تحطمت سفنه في عراء لحظة عبثية مجنونة، لافتاً إلى ضرورة ترميم المكان على نحو آخر، إذ لطالما انهمك المثقف السوري بالأسئلة الكبرى على حساب روح المدينة وطبقاتها المهملة، فيما يؤكد عادل محمود على ضرورة ترميم أرواحنا بالحوار، وللمة شظايا من بقي صامداً في البلاد، وإعادة فحص الهوية السورية، ونزع الألغام عنها، بقراءة مغايرة، أقل ريبة، ذلك أن ما تكشّف عن اختلال مفهوم الهوية الوطنية لدى شريحة من المثقفين، يدعو للهلع حقاً». منذ أيام قابلته في الشارع ـ يفصل بيننا شارعان ـ سألته عن أحواله، فأجاب: «كئيب وتعيس ووحيد». أدركت وأنا أودّعه بأنه يحتضر بصمت.

كان طائر الحجل يرمّم أحزانه السريّة وجناحيه المكسورين بعشب روحه، في محاولة للتحليق بين خيبة وأخرى، وها هو يباغتنا بطعنة غير قابلة للشفاء. نحتاج إلى زمن طويل كي نقنع أنفسنا بغياب هذا القدّيس، لكن كيف نعبر أمام مضافة البدوي التي لم تغلق بابها يوماً؟ تعالوا نطلق اسم بندر عبد الحميد على هذا الشارع، برغم أنف البلدية وأصحاب الأختام.

غرفة بندر عبد الحميد

أصبحت لنا غرفة الآن قرب الرب. اسمح لي أن أقول ذلك بكل أنانية! يا بندر، فأنا لا أومن أن للزمن أهمية لديك ولم يكن مكانك بعيداً عن السماء.

صفاء صنكور

لقد خبرت ذلك فيك، فلقاءاتي بك تفصل بينها عقود، وفي كل مرة أراك تستقبلني وكأننا تفارقنا ليلة أمس. ثم تطول الليلة عندك وكأنها حصاد عقود: معرفة ومحبة وطيبة ومسرة.

أتذكر، في تلك الأيام القليلة النادرة التي عرفت بريبع بغداد ودمشق عام ١٩٧٩، نزلت علينا كملاك دمشقي (اسررتني حينها أن مجيئك كان مصادفة بعد أن اعتذر المسؤول الثقافي السوري المدعو إلى المهرجان)، ولفت انتباهك ذاك الشاب المتحمس الذي يناقش كل يوم في الجلسات النقدية لمهرجان السينما العراقية (أفضل وأغنى مهرجان في تاريخها، ولم يتكرر)، فاصطفيته صديقاً بلحظات ومن دون حواجز ، كما اصطفاه غالب هلسا ومحمد مبارك ليكون ثالثهما على منصة جلسة الختام وهو لم يدخل العشرينيات من العمر بعد. بلمحة بصر اختفيت بعد أن التمعت في سمائنا كشهاب. وأغلقت الأبواب بعدها بأقفال ثقيلة من الدم والحروب والحصار. بعد مرور نحو عقدين، مررت بالشام في طريقي إلى بيروت لالقاء بحث في ندوة اتحاد الكتاب اللبنانيين عن "المثقف والهوية" ، لم أتخيل أنك ستتذكر ذلك الشاب النحيل، ولا حماسه، لكنك استقبلتني بالأحضان وكأننا افترقنا أمس، وبادرتني بسلسلة من القفشات عمن يحكمون عندكم وعندنا أزالت كل توجسي وخوفي، وبت تذكرني بتفاصيل أنا لا أتذكرها. فعرفت أي قلب كبير وأي ذاكرة حية وأي نبع للطيبة والمحبة هو أنت يا بندر. ومنذ ذلك الحين باتت دمشق هي بندر بالنسبة إلي وبندر هو دمشق كلما عدت إليها. كنت أذهب بلا سابق موعد إلى تلك الغرفة مشرعة الأبواب، المؤثثة بالمحبة والطيبة والمعرفة والأصدقاء، شاعر تحيط به هالة، أجل هالة من الأصدقاء، هكذا كنت أرى بندر عبد الحميد دائما.

تشبه تلك الغرفة الصغيرة القبو. وتحتل طاولة الجلسة الواسعة والعامرة بالأصدقاء دائما معظم مساحتها تاركة مساحة صغيرة لمكتبة ملحقة بها وما يشبه المطبخ يطل علي بابها، لكنني لم أدخل بحياتي مكاناً رحباً في الوقت نفسه مثلها. رحبة، فسيحة، بل قل شاسعة وعمقها لا يحد، كانت غرفتك يا بندر. لم أكن أرى فيها شيئاً مفتوحاً لكنني كنت أراها تطل على السماوات، وتمتلئ بغيوم تمطر محبة. وعلى طاولتها تتلألأ قطرات ندى حنين خلفها أصدقاء راحلون، وتدوّم في فضائها نسمات مضمخة بالطيبة والرأفة وتتردد في أثيرها موسيقى وشجن أغنيات وضحكات تركها خلفهم من عرجوا من سماواتها من الأصدقاء.

أنا واثق من أن غرفتنا الجديدة التي ستؤثثها كعادتك قرب الرب لن تكون سوى صورة أخرى من سماوات المحبة الفسيحة تلك ولكنها هذه المرة لن تكون في مكان صغير قرب شارع العابد يشبه القبو.

انتظرنا يا بندر، يا نبع الطيبة والمحبة، وأشدّ انتظرني قريباً أيها الصديق البهي، لا أظن أننا هذه المرة نحتاج إلى أن تمر عقود كي نلتقي، وليس ثمة في بلداننا المخربة المضاعة ما يغري بالبقاء. وأنا مطمئن أنني سأجد باب غرفتك مشرعاً كعادته وذراعيك النحيفتين مفتوحتين للعناق.

بندر عبد الحميد: لا حلّ إلّا في التغيير الشامل!

تعلّم بندر عبد الحميد القراءة والكتابة على يد شقيقه، قبل دخوله المدرسة. كانت أقرب المدارس إلى قريته تل صفوك القريبة من الحسكة، تبعد حوالى عشرين كيلومتراً. حين ارتاد تلك المدرسة لاحقاً، كان عليه أن يمضي ثلاث ساعات يومياً على طريق الذهاب والعودة مع أقران له.

سعد هادي

لم يكن يعرف لماذا يبذل كل ذلك الجهد من أجل شيء يعرفه. في تلك السنوات، كانت عائلته تتنقّل في المنطقة المحاذية للحدود العراقية بين سهل سنجار في الربيع، وتل براك في الشتاء، لتسكن موقتاً في بيوت شُعر وترعى أغنامها. أمّا هو، فيُقبل في نصف العام الدراسي التالي في مدرسة العشائر الداخلية في الحسكة. يتذكر أنّ الدراسة كانت جادّة ونظام الطعام والإقامة ممتازاً. استمر ذلك حتى الخامس الابتدائي، حين حصل على المرتبة الأولى في الامتحانات، متفوّقاً على كل تلاميذ المحافظة. سألوه في مديرية التربية: هل تريد مكافأة أم رحلة إلى يوغوسلافيا؟ اختار الرحلة. وبعد انتظار طويل بين ١٩٥٩ و١٩٦٠ أخبروه بأنها ألغيت، ولم يتسنّ له زيارة يوغوسلافيا مطلقاً.

انتهى دور مدرسة العشائر عند ذلك الحد... استأجر غرفة مع إحدى العائلات، وانتسب إلى مدرسة اسمها «الغسانية». كانت المدرسة تضمّ مكتبةً ضخمة، حافلة بنوادر المطبوعات والكتب، فأصبح مسؤولاً عنها، مع زميل آخر له. كان أستاذ اللغة العربية شاعراً مُحدّثاً من حلب، اسمه ظهير كنيفاتي، ويدين له بندر عبد الحميد بالفضل لأنّه علّمه أنّ القراءة فعلٌ جاد قبل أي شيء آخر.

يتذكّر من تلك الأيام أنّه كان يبتكر في وحدته طبخات لا يمكن لأيّ طباخ شهير في العالم التفكير فيها، حتّى إنّ طبخاته كانت «تثير الخوف» لدى أصدقائه. لم يشتهر أحد من هؤلاء الأصدقاء الذين أولع بعضهم بالقراءة مثله. بقوا في الحسكة ثم اختفوا من المشهد على مراحل، بينما حصل بندر بعد تفوّقه في البكالوريا على منحة دراسية من وزارة التعليم، وانتقل للدراسة في جامعة دمشق. تنقّل بين غرف سكن عدّة، ولازمه شعورٌ بأنّ «الحياة أوسع هنا، رغم أن البلد كان مغلقاً، وبقي كذلك لبضعة عقود». كان الشعر قد بدأ قبل ذلك، إذ كانت قصائده الأولى كلاسيكية ـ وفازت إحداها بالجائزة الثانية في مسابقة أجرتها مجلة «العالم» التي كانت تصدر في بيروت ـ لكنّه لا يتذكّر اليوم بيتاً واحداً من «تلك القصيدة العمودية التي تشيد بالتطور العلمي».

في دمشق، بدأ الكتابة للصحافة أيضاً، ومن خلالها تعرّف إلى الكثير من المثقفين. كان أصدقاؤه دائماً أكبر منه، ربّما لأنّه اعتاد مجالسة الشيوخ وشرب القهوة معهم، منذ كان طفلاً. في عام ١٩٧٣ تعرّف إلى زكريا تامر وأجرى معه حواراً صحافياً نشره في مجلة مغمورة، وظل «تامر يشيد بذلك الحوار ويعتبره أفضل حوار أجري معه». في العام التالي، نشر مجموعته الشعرية الأولى «كالغزالة... كصوت الماء والريح» التي انتقل فيها من الكلاسيكية إلى السريالية، من دون أن يمر بمرحلة وسطى. كتب قصائد تلك المجموعة في سجن «الشيخ حسن»، حيث سجن لبضعة أشهر بسبب «تهمة ملفّقة شبه سياسية». وبعد إطلاق سراحه، عاش مرحلة يصفها بـ«قمة الفوضى»، كما رسب بإرادته لسنتين في الكلية، لأنه أحبّ طالبة تصغره بصفّ وأراد أن ينتظرها لتلحق به.

في تلك السنوات، بدأت علاقته بالسينما. كان يشاهد الأفلام يومياً، ويقرأ ويكتب عن الفنّ السابع... وحين ذهب إلى هنغاريا عام ١٩٧٩ لدراسة الصحافة، شاهد في نادي السينما في بودابست كل الأفلام الممنوعة في سوريا. عند عودته، كان قد اختير عضواً في مجلة «الحياة السينمائية» التي كانت مرجعاً مهماً للعاملين والباحثين والقرّاء، وما زالت تصدر حتى الآن رغم كل العقبات. هكذا أسّس سلسلة «الفن السابع»، ثمّ عمل أميناً لتحريرها، وهي تُعنى بنشر الكتب المتعلقة بالسينما، وأصدرت أكثر من ١٦٠ كتاباً حتى الآن. لا يعترف بندر عبد الحميد بانتمائه إلى أي اتجاه أدبي، فهو ضد التصنيفات عموماً... كما يرى أن التطور الثقافي كان بطيئاً بسبب العزلة، إذ كما يقول دوماً «نحن معزولون لأسباب تافهة».

لا يفصل الرجلُ بين شعره وحياته، فلا يسأل نفسه ماذا حقق شاعراً. إذ إنّ همّه في المقام الأول هو التوازن مع نفسه لا مع العالم، وقد حقق ذلك لأنه «لا يفكر بقواعد مسبقة ولا نظريات ثابتة، يؤمن بحريته قبل كل شيء، بصناعته لتلك الحرية التي يتمنى أن ينالها الجميع». حاول التعبير من خلال الشعر عن تلك الحرية، على الرغم من أنّه لا يتذكر إلا القليل من قصائده، ربما «لأن تلك القصائد مرتبطة بحدث أو ذكرى ما». لم يعد ينشر شعراً، يكتب القصيدة ويضعها جانباً في انتظار أن تكتمل لديه مجموعة ذات مناخ واحد. المجموعة «برأيه» تعبّر عن الشاعر بطريقة أفضل، وهي سجلّ لمرحلة في حياته وفنه.

عام ١٩٨٤ نشر روايته الوحيدة «الطاحونة السوداء»، بعد أن أمضى شهوراً في قرية عجيبة يحكمها المهرّبون والشرطة معاً على الحدود التركية، بين رأس العين والقامشلي. أتيح له هناك التعرّف إلى شخصيات نادرة ودخل في سلسلة من الأحداث الغريبة، فكتب الرواية من دون تفكير. تجربته الروائيّة تلك كانت «بنت وقتها»، حتى إنّه لم يعد قراءتها ثانية وليس لديه نسخة منها. كتب أيضاً سيناريوات لأفلام قصيرة، لكنّها نُفّذت بطريقة سيّئة، ولم يتسنّ له التدخّل في التنفيذ لأسباب مختلفة.

يعشق بندر عبد الحميد التنويع في مصادر القراءة والكتابة، وهذا ما كان يدفعه دائماً في اتجاه الصحافة. في هذا المجال، ليست لديه موضوعات مسبقة، لكنّه يجتهد في اكتشافها، في ظلّ مشاغل الحياة اليومية. كان تشاؤمه يتضاعف باستمرار أمام الواقع الثقافي... وظل يعتقد أن «لا حلّ إلّا في التغيير الشامل، وليس في إصلاحات الترقيع». فالحياة الثقافية العربية «ليست متوقّفة... بل تتقهقر إلى الخلف، وبسرعة، ما يثبت أننا منعزلون تماماً، وبإرادتنا، عما يجري من تحوّلات في العالم".

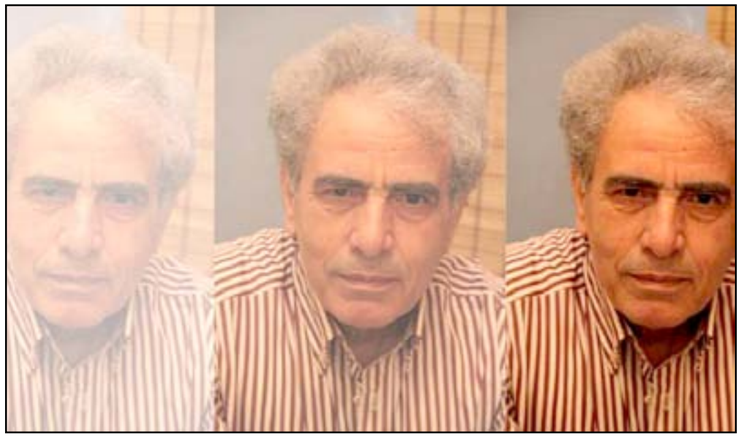

بندر عبد الحميد وردة أدباء سورية

حسن عبد الرحمن

سيتحدثون كثيراً عن بندر عبد الحميد، سيقولون نثراً وشعراً وأحاديثاً وحباً، ولكن أحداً لن يكون بمنزلة قريبة من هذا الشاعر والأديب والفنان والمثقف والصحفي والنبيل والروائي، حين كان يحكي عن أي شيء ويتحدث عن أيٍ شيء.

بندرٍ عبد الحميد عالماً ومجمعاً ثقافياً مستقلاً زاهياً وملوناً لهواة الحب والأمل والمعرفة، لم يكن أكثر تواضعاً ولا أقل كبرياءً من وطنه سورية.

رحل وتركنا جميعاً أكثر ندماً لاعتبارنا بغباء لا يحد أننا يمكن أن نراه كل يوم وساعة نشاء، نؤجل رؤيته وكأنه متاح دائماً كما عودنا، دون أن نحسب حساباً بأننا يمكن أن نفقده في أي لحظة.

من أكثر مايحزن ويحرق القلب أنه كانٍ يعيش آخر أيامه يائساً فاقد الأمل منهزماً وهو يشهد حال الوطن وما حل به.

صديق عمره الأديب والباحث محمد كامل الخطيب، كتب عنه فقال: "لو أن بإمكاني أن أكتب أو أن أقرأ بالدموع لكتبت وقرأت عن رحيل صديق العمر والقلب والمسافات البعيدة والرقيقة. بندر عبد الحميد الذي أهداني وردةٍ يوم التقينا، فتصادقنا منذ اللقاء الأول عام ١٩٦٨ في حديقة جامعة دمشق.

يقول محمد كامل الخطيب: "مرة ومنذ زمن بعيد كتبت، خرجت الثقافة السورية من بيت بندر عبد الحميد، مثلما خرجت القصة الروسية من معطف غوغول، ربما بإغلاق بيت بندر عبد الحميد، هذا البيت الذي كان مفتوحاً لكل الناس، كقلبه ومخيلته مطلقة السراح، تعلن ثقافة جيل ومرحلة سوريَّة عن انتهائها."

بندرٍ عبد الحميد الذي كان يعيش الحياة دائماً بوجهٍه الصافي وابتسامته البريئة، سيبقى رمزاً للثقافة السورية وسيبقى بطيفه حاضراً بخفة الخيال والمخيلة والموهبة.

عند كل محطة للأصدقاء كان بندر مقصداً، بكل بساطة، كان يكفي أي اقتراح من أي صديق "تعالو نزور بندر حتى يتم الأمر، كانت رغبة الأصدقاء قبل رغبته التي كان يجهزها سريعاً دافئة وطرية ووادعة لطيفة مع الطرقة الأولى على الباب الأليف الحنون.

لن أنسى ذات ليلة من شتاء الثمانينيات وكنت قد أرسلت قصيدة إلى مجلة الآداب اللبنانية ونستيها كعادتي في نسيان ما أحب لنفسي، لأفاجأ بعد صدور المجلة ببندر عبد الحميد وقد قرأها بإعجاب ومحبة لبعض الأصدقاء، الذين تداولوها بدورهم. اتصل بي الصديق محمد كامل الخطيب يومها ليخبرني بفرحة بندر عبد الحميد بالقصيدة. وما أزال إلى اليوم فرحاً بفرحته تلك.

كانت أولى أيام معرفتي به التي توطدت عن بعد وعن قرب كغيري ممنٍ أحبوه وأحبهم عندما كتب مقالا عظيماً لا أزال أذكره إلى اليوم، كان بمثابةٍ صفعة للتكاذب والتبجح في وقته منتقداً شلة من الأدباء والصحفيين السوريين من أبناء جيله ممن كانوا يتفاخرون أمامه بقتل الغزلان ورحلات صيد الغزلان الجميلة وهمٍ يقتحمون عزلتها البريئة ويطاردونها ليلاً في البادية السورية، بينما يزاودون ليل نهار بالشهامة والنبل والإنسانية والرومانسيةٍ والحب.

مع أنه عايش وعاصر أجيالاً مختلفة من أدباء ومثقفي سورية والوطن العربي بمختلف مشاربهم الفكرية والسياسية، إلا أنه حافظ على مسافة منهم جميعاً، أحب من يستحق ومن لم يستحق منهم وأحبوه بدورهم.

بندر عبد الحميد ذهب منكسراً تائهاً زاهداً كما سنذهب منكسرين تائهين زاهدين ونحن نعيش أحلامنا المنكسرة. بسؤال لا جواب عليه هل "سورية وردة أم قنبلة."؟ اسم الكتاب الجميل الرائع لصاحب الرؤيا محمد كامل الخطيب.

بعد ثماني سنوات حرب ما نزال نسأل وسنبقى ربما لفترة طويلة نسأل هل ستكون سورية وردة أم قنبلة؟

الموت ينتصر دائماً

ها أنا ذا أغمض عيني، وأنا مستلقية على كنبتي في بيت مستأجر في القاهرة، وأترك لأحلام اليقظة أن تفصلني عن المكان والزمان، وتلقي بي إلى الوقت المفصول عن الزمن، حيث أرى نفسي في شارع العابد في قلب دمشق. أدخل إلى مقهى الروضة، ألتقي خليل وأميرة وخضر وحازم وشكران، نشرب القهوة، ونمارس قليلا من النميمة المعتادة، ونثرثر في شأن الثقافة السورية ومعاركها التافهة مع بعض الأصدقاء، ثم ننطلق إلى الغداء في مطعم اسكندرون في تقاطع العابد مع شارع الباكستان.

رشا عمران

نقرّر في لحظة، ونحن نقترب من المطعم أن نحمل أشياءنا معنا ونعرّج على بيت بندر عبد الحميد، من دون أن نخشى عدم وجوده، فباب الغرفة مفتوح دائما، وإن لم يكن هو موجودا فحتما هناك زائر ما، قد يكون غريبا عن دمشق، وقد يكون أحد معارفنا. سنجد بندر، وسيستقبلنا بتلك الابتسامة الهادئة التي لا تفارق وجهه الطيب، (هل من قبيل المصادفة أنه أطلق اسم الطيب على أكبر أبنائه؟). سيُمازحني، كعادته، عن بداية مراهقتي، حين كان يزور والدي مع الأصدقاء في سبعينيات القرن الماضي، وسأقول له: لقد كبرنا، يا بندر (ربما أستبدل كبرنا بمفردة "هرمنا")، وسقطت أحلامنا كلها وفقدنا كل شيء. وسيعض على يده الموشومة بلون بدوي لافت، بينما يترك لصمته الحزين كالحداء أن يفرش علينا غطاءه، فنرتجف من الحزن والحنين، وسأفتح عيني، في تلك اللحظة، لأعود إلى زمني، حيث أستلقي على كنبتي في بيت مستأجر في القاهرة، وقد هرمتُ فعلا، وقسًت يد الزمن على جسدي وقلبي.

مات بندر عبد الحميد، مات وحيدا حزينا من دون أن يجد من يسعفه حين أصابته أزمة قلبية. ماتت شكران الإمام أيضا قبل سنوات، وحيدة وحزينة كما كانت دائما. مات أصدقاء عديدون في دمشق وفي بلاد العالم. ماتوا من الوحدة ربما أو من الحزن، لا فرق أبدا، بينما يعيش حازم في شقّة صغيرة في باريس، وخضر في إحدى مدن ألمانيا، أما أميرة التي تعيش في مدينة السويداء، فهي لم تزر دمشق منذ مطلع عام ٢٠١١. وحده خليل ينتقل بين بيته في شارع العابد ومقهى الروضة في الشارع نفسه، يلتقي أصدقاء آخرين، لا نعرف كثيرين منهم، نحن أصدقاؤه القدامى، ويدوّن يوميات الحرب والقهر والحزن في دمشق التي تهشمت فيها الحياة والثقافة والفرح والحزن، تهشم فيها كل شيء، ربما وحدها الكتابة هي من ينقذ خليل، والأصدقاء الذين بقوا هناك.

مات بندر عبد الحميد، دفن في مقبرة نجها (مقبرة المجهولين). سندفن جميعا في مقابر المجهولين، حيث لا أوطانٍ لنا، "الوطن هو حيث توجد قبور أحبابك". من رافقه إلى رحلته الأخيرة؟ ما هو مصير تلك الشقّة النادرة في شارع الباكستان، بأرشيفها الطويل وبذاكرة جدرانها وبلاطها؟ عرّج المئات على تلك الشقة، وسمعت جدرانها نقاشات في الثقافة والسياسة بمختلف لهجات بلاد العرب. كتب أصدقاء ومعارف كثيرون عن تلك الشقة إثر رحيل صاحبها، وكأن شخصية بندر عبد الحميد تماهت معها، كتبوا عنها أكثر ما كتبوا عنه، هل تصنع البيوت أصحابها؟ وهل يصبح الناس بيوتهم؟ يقينا أن: لا، لم يصنع بندر عبٍد الحميد بيتا فقط، بل صنع دمشق خاصةً به، هو البدوي القادم من الحسكة إلى عاصمة مركّبة طبقيا ومناطقيا وسياسيا وثًقافيا. كان لا بد، بشخصيته التي تبدو من الخارج متحفظة ومتوجسة، أن يصنع مكانا يشبه داخله، مكانا كريما رحبا متسامحا متقبلا لجميع الاختلافات، هل هذا ما جعل الجميع يتفقون على محبّته لحظة انتشار خبر رحيله؟ الجميع الذين يختلفون، ليس فقط في السياسة والانتماءات، بل ربما يتحاربون بسبب الاختلاف على شكل اللباس.

"كيف هي حياتك في القاهرة وكيف وضع قلبك بعد العملية؟" سألني بندر حين قابلته مصادفة في شارع الحمرا في بيروت قبل عامين. حكيت له قليلا عن حياتي هنا، وأخبرته أن قلبي عاد إلى الخفقان بشكل طبيعي، وما زال يبحث عن الحب، لكنه يخذلني قليلا كلما تذكرت دمشق. قال لي، بلهجته المختلطة بين البدوية السورية والعراقية (حتى لحظة رحيله ثمّة أصدقاء كانوا يظنونه عراقيا): "حاولي أن تنسي كي يبقى قلبك سليما، لم يعد في دمشق ما يستحق الحنين، عيشي ولا تدعي الوحدة تنهش قلبك".. الوحدة أتلفت قلب بندر عبد الحميد، بينما ثمّة من يحتفل بـ"النصر" في دمشق الحزينة، من دون أن ينتبه الساذجون منهم أن الموت هو المنتصر الوحيد، وأن الموتى وحدهم من يرون بريقه.

بندر عبد الحميد وبيته

لطالما تهيبت دخول بيت بندر عبد الحميد، فما كنت أقوى على دخول بيت يذكره مثقفو سوريا وكتابها وفنانوها كما يذكرون بوابات دمشق السبع ونهر بردى وجبل قاسيون.. ظننت، من كثرة اتساعه وازدحامه وصخبه، أنه كاتدرائية ضخمة للفنون والثقافة، شقة بغرف كثيرة وصالونات كبرى، متحف للفن، وأرشيف للتاريخ الثقافي في سوريا... لكن، عندما حان قضاء الله وقدره في تجليه الأكثر محبة، ودخلته بنوع من الإجلال والخشوع والرهبة، وجدته غرفة صغيرة في أحد تفرعات شارع العابد وسط دمشق. وكانت تلك الغرفة فعلًا كل ما ذكرت: كاتدرائية ضخمة وشقة بغرف وصالونات كثيرة ومتحفًا وأرشيفًا.

خضر الآغا

"بيت بندر" منارة الشام التي قصدها الكتاب والفنانون والمؤرخون والحالمون، من الدمشقيين ومن ساكني دمشق والعابرين إليها وفيها... نقطة علاّم، ومركز الجهات: ثمة ما هو غرب "بيت بندر" وشرقه وشماله وجنوبه، وثمة ما هو على اليسار منه، ومقابله، وعلى بعد كيلومترات منه.. من لا يعرف دمشق يعرف بيت بندر. ومن يتوه في أزقة دمشق وحواريها يلجأ إلى النقطة الواضحة والبراقة كقطعة الذهب: "بيت بندر".

ولطالما تهيبت التعرف إلى بندر عبد الحميد، تلك القامة العالية التي يتم ذكرها في أوساط الكتابة والتأمل والفن مثلما يتم ذكر شخصيات تبدو وكأن شعوبها تنتمي إليها مثلما ينتمون هم إلى شعوبهم: المتنبي والمعري وغوته وشكسبير... وعندما التقيته التقيت قلبًا كبيرًا وباذخًا على هيئة إنسان، مبتسمًا، مرحّبًا، مقبلًا على الحياة مثل عاشق مقبل على حبيبته، مثل صوفي مقبل على الله، مثل شاعر في العصور القديمة مقبل على قصيدته.

إنه لأمر باذخ أن تلتقي، دفعة واحدة، القلعتين: بندر عبد الحميد وبيته! أكثر، أن تكون صديق الهرمين على مر الأيام فتلك منحة لطيفة يمنحها لك الحظ في أكثر ظهوراته رأفة. منحني بندر عبد الحميد وبيته تلك القدرة العالية على التشاوف، فلطالما شعرت، بنوع من التنويه بالذات، أنني صديق النهر ومجراه! ولقد تشاوفت بهذا، بكل ثقة، على الجميع الذين هم أصدقاؤه أيضًا!

كأن من لم يدخل "بيت بندر" لم يدخل دمشق، إذ تاريخيًا ثمة أبوابٍ سبعة لدخولها، وتاريخيًا لم يكن ممكنًا دخول دمشق: مدينة الله، إلا عبر واحد من أبوابها السبعة تلك، أما في عصرنا الحاضر، وبدءًا من "بيت بندر" فقد صار وكأن الدخول إلى دمشق سيكون عبر ذلك البيت المترامي الأطراف، وبنوع قليل جدًا من المبالغة يمكن القول إن "بيت بندر" هو البوابة الحاضرة الوحيدة لدخول دمشق! أن تكون هناك يعني أنك في قلب دمشق، وفي قلب الحدث الثقافي والفني والكتابي. أكثر، أنك في التاريخ أيضًا.

ليس من الممكن تفسير كيف تتسع غرفة صغيرة لذلك العدد الكبير من الأشخاص في كل مرة يجتمعون فيها، وتعبير "في كل مرة" هنا يعني: دائمًا، ليس من الممكن تفسير ذلك إلا باللجوء إلى المجازات، وهي أن بندر يفرش قلبه ليتسع الجميع! فالمجاز في "بيت بندر" ومع شخص مثله يتحول إلى حقيقة دون لبس. كنا كأنما نتنافس على قلب بندر، ونتسابق إليه، وكان قلب بندر موزعًا بالتساوي على الجميع.

المنكسرون، المهزومون، المخذولون، الهاربون من أوجاعهم وآلامهم كانوا يلجؤون إليه ثم يخرجون طافحين بالأمل وبالقدرة على الحياة، كان يغيّرهم هكذا كما لو أنه ساحر! كان يتحدث ببساطة، لم يلجأ إلى النظريات، ولا إلى المصطلحات، ولا إلى الكلام المعقد... كان يترك قلبه يتحدث مثل شلال يهبط من علٍ، ولأنه هكذا ربما، بل لأنه هكذا على وجه التأكيد، كان ينشر نوعًا باهرًا من الطاقة الإيجابية على محيطه وأصدقائه ومعارفه!

حتى في شعره كتب شعرًا قلبيًا، كتب مثلما تكلم، كساقية ماء تحفر طريقها بهدوء ورسوخ. ركّز أكثر فأكثر على "الإنسان الصغير"، رأى القضايا التي اعتبرتها البشرية عظيمة، كالحرية مثلًا، ليس في الأفكار التي عبرت عنها، وليس في الثورات الكبيرة التي اجترحتها الشعوب لنيلها، وليس في حروب الكون لأجلها أو باسمها... إنما في أكثر الأشياء بساطة وعادية. لم يكتب عن/ أو حول البطل الذي سيأتي، بعد قليل، ويعيد للأرض رائحتها، ويُرجع الموتى إلى أمهاتهم، ولم يكتب عن الرجل الغامض الذي تنتظره البشرية ليخلصها من طغيان الطغاة وفجور الفاجرين... بل عن أناس أقل مقدرة من ذلك بكثير، وأكثر التصاقاً بالهشاشة والضعف...

يقول في قصيدة بعنوان "الدراجة":

"الولد الصغير الذي يبكي
هو الذي اخترعٍ الدراجة
عندما كان حزينًا وجائعًا
يبحث عن لعبة
لمعت عيناه
وفرك يديه بدهشة
ثم رسم على أوراقه
مئات الدوائر والمربعات
وضرب القطة بعلبة الكبريت
وقبل أن تغيب الشمس
وقبل أن ينتهي الحبر
انتهى الولد الصغير
من اختراع الدراجة"!

بندر عبد الحميد أكثر شعراء جيله تبسيطًا في التعبير، لا يتعمد أي تحويل أو انحراف للغة مهما صغر حجمه، كان يكتب وكأنه في بيته يتكلم مع زوّاره:

"علي أن أعترف بما حدث
أنا وحبيبتي كنا نركض
لا نفهم شيئًا ولا نخاف الوحوش في الغابة
دخلت شوكة في راحة يدها الصغيرة
لمست يدها فاهتزت ونظرت إلي بذهول
أصابنا صداع الحب الأول
وتساقطت فوقنا كل أوراق الأشجار
نمنا ثمانية ألف عام
ثم استيقظنا لنتعلم

الفيزياء والرقص والرسم".

ومع أنني لست بحاجة إلى من يذكرني ببندر عبد الحميد، ولا برائحته، فدمشق بجلالها وبهائها تذكرني به، وذاكرتي المكتظة تذكرني به، الأنهار والأشجار تذكرني به، مع هذا فقد أحضرت معي من سوريا لدى خروجٍي الأليم منها نهاية العام ٢٠١٣، دونًا عن أشياء كثيرة أثيرة لدي وغالية على قلبي، زجاجة العطر التي أهداني إياها ذات بسمة ربيعية، وما أزال أحتفظ بها حتى يوم الناس هذا.

عندما نتحدث عن بندر عبد الحميد فنحن نتحدث عن دمشق. لكأنما صار بندر مجاز دمشق، وهذا ما يجعلنٍي، بنوع شديد من الهشاشة، أتوجس خوفا عظيمًا إضافيًا على دمشق، فلقد مات مجازها!

لا أرثي بندر عبد الحميد، ولا أرثي عبره السوريين الذين يموتون على مدار الساعة، أنا أهجو الحياة فقط.

قصيدة سينمائية

غادة الأحمد

هناك أشخاص يمرون بالحياة فيحدثون فرقا وعندما يموتون يتركون فراغا لا يمكن لأحد ملؤه.

بندر عبد الحميد واحد من أولئك في سيرته الحياتية والإبداعية لم يكن مجرد مثقف امتلك أدوات الإبداع وناصيته، ولكنه كان حالة نادرة في يوميات دمشق. من أوائل سبعينات القرن المنصرم. بيته المشرع في شارع العابد، شاهد على حالته الاستثنائية في الحياة الثقافية السورية والذي كان يستقبل الضيوف من المحافظات السورية البعيدة ومن سكان دمشق: مثقفينٍ ومبدعين... رسامين وسينمائيين شباباً ضاع بهم الأمل ولم يجدوا بدمشق صدراً يحتويهم فكان بندر الوجهة والصدر والوجه البشوش والقلب الواسع.

بدوي تعود ألا يغلق بابه في وجه أحد وهو القادم من أقصى الشمال من قرية تل صفوك التابعة لمحافظة الحسكة الذي كانٍ عليه أن يمشي عشرات الكيلو مترات يومياً من أجل أن يدرس في أقرب مدرسة منها... هادئ الطبع يتحاشى العداوات والمزاحمة التي كانت سمة المرحلة التي عاش بها، مرحلة السبعينات التي رسمت المشهد الثقافي والأدبي في سورية والوطن العربي.

قصيدته تشبهه في بساطتها وتشبه الفرات في انسيابها ورقتها.

وأنت تخطُّ/ شطآناً وبحوراً/ موسيقى وأسماء/ انتبه/ انتبه أيها البريء/ كل شيء يُمزق/ وخلف ظهر يدك/ تقف / وردة/ من مجموعة (دعوة خاصة للجميع دعوة عامة لشخص واحد ٢٠٠٦).

ظلَّ وفياً لقصيدة النثر وأخلص لها، ووجد ضالته في السينما ولاّدة الروايات والصور.

بدأ حياته مع الشعر بإصدار أول ديوان له عام ١٩٧٥ بعنوان «كالغزالة.. كصوت الماء والريح» قبل عام من تخرجه من كلية الآداب وحصوله على الشهادة الجامعية في قسم اللغة العربية، وأتبعها بمجموعات شعرية أشهرها «مغامرات العيون والأصابع» و«إعلانات الموت والحرية» و«احتفالات» و«كانت طويلة في المساء».

عمل في الصحافة السورية قبل أن ينتقل إلى مجلة الحياة السينمائية التي تصدر عن المؤسسة العامة للسينما كأمين تحرير، ليؤسس فيما بعد سلسلة «الفن السابع» التي تعد واحدة من أرقى كتب الثقافة السينمائية في العالم العربي. وشغل مديراً لدار «المدى» للنشر خلال سنوات حياتهٍ الأخيرة وحتى يوم وفاته، كما عمل مراسلاً لمجلة «العربي» الكويتية لعدة سنوات، وشارك بالعديد من المهرجانات السينمائية العربية، له العديد من الكتب في مجال الفن والسينما آخرها عام ٢٠١٩ صدر عن «دار المدى» «ساحرات السينما» وله رواية واحدة صدرت عام ١٩٨٤ بعنوان «الطاحونة السوداء».

اللافت أن بندر جمع السوريين في مماته، كما في حياته موالين ومعارضين ورماديين مقيمين وفي الشتات، فالجميع شعر بالصدمة والفقد لإنسان كان يحب الجميع، وفتح بيته وقلبه لاستقبالهم على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم السياسية والأدبية والفكرية...

لا شيء ممنوع في بيت بندر عبد الحميد، ولا تابوات على النقاشات المحتدمة في بيته، فالجميع يقول ما يريد بحرية، فالحرية أهم ما يمكن أن يملكه الإنسان.

بيته في شارع العابد متحف صغير مكوّن من غرفة في قلب دمشق وفي واحد من أهم شوارعها.. شارع العابد تغص جدران الغرفة بالصور والقصائد والكتب. صور لجميلات السينما العالمية والعربية.

من لم يزر بيت بندر في دمشق، لم يزر دمشق. ولم يعرفها في وجهها الجميل الأليف المحب والبشوش. وأضاع عليه فرصة لمس النبض الحقيقي للثقافة السورية بتجلياتها المختلفة دون تزييف وتزويق وممالأة... وجه يتكشف في الجلسات والحوارات التي كان يديرها.

سيسجل لدمشق يوماً استثنائياً في حزنها المداوم من سنين، لأنه يوم غياب بندر عبد الحميد، الرجل الذي جاء من إحدى قرى الحسكة ذات يوم قبل عشرات السنين، وصار أحد وجوه دمشق التي لا يمكن نسيانها أو تجاهلها.

مات أبو الطيب... مات صديق الجميع... النبيل الشهم الكريم صاحب البيتٍ الصغير الحنون الذي ظل بابه مشرعاً لعابري السبيل والأصدقاء من مثقفي سورية والوطن العربي.

" بندر عبدالحميد نجم متفرد هوى من سمائنا فخسرت دمشق اسماً من أسمائها اللامعة ".

بندر عبد الحميد الشاعر البدوي الذي اصابه شغف السينما

عبده وازن

بدا رحيل الشاعر السوري بندر عبد الحميد في دمشق أشبه بمفاجأة أليمة صدمت أصدقاءه الكثر، في سوريا الداخل والمنفى وفي العالم العربي. فهذا الشاعر والناقد في حقل السينما لم يكن يتذمر حتى في أشد الأيام مأسوية وسوداية، بل كان يحافظ دوماً على ابتسامة خفرة تخفي وراءها أملاً ما وهدوءاً كان سمة من سمات شخصيته. لطافة واتزان وعدم توتر أو انفعال حتى في الأمور الصعبة، وحماسة إزاء الشعر والسينما والكتابة الصحافية، وثقافة شاملة عمل على ترسيخها في زمن كان يحلو له أن يسميه "زمن العزلة" داخل سوريا وفي ظل حكم البعث واستخباراته وأيديولوجيته المغلقة.

رحل بندر عبد الحميد عن ٧٣ سنة أمضى جلها يقرأ ويكتب، منفتحاً على أصدقاء دائمين، سوريين وعرب، كانوا يؤمّون ما كانوا يسمونه "غرفة بندر" التي كانت ملحقة بمنزله في شارع العابد الدمشقي ومنفصلة عنه في آن، وكان يحيي فيها سهرات من الشعر والأدب والنقاش الثقافي وعرض الأفلام المهمة والممنوعة التي كان يحصل عليها تهريباً. هذه الغرفة قصدها معظم الشعراء والكتاب والفنانون العرب الذين كانوا يزورون دمشق.

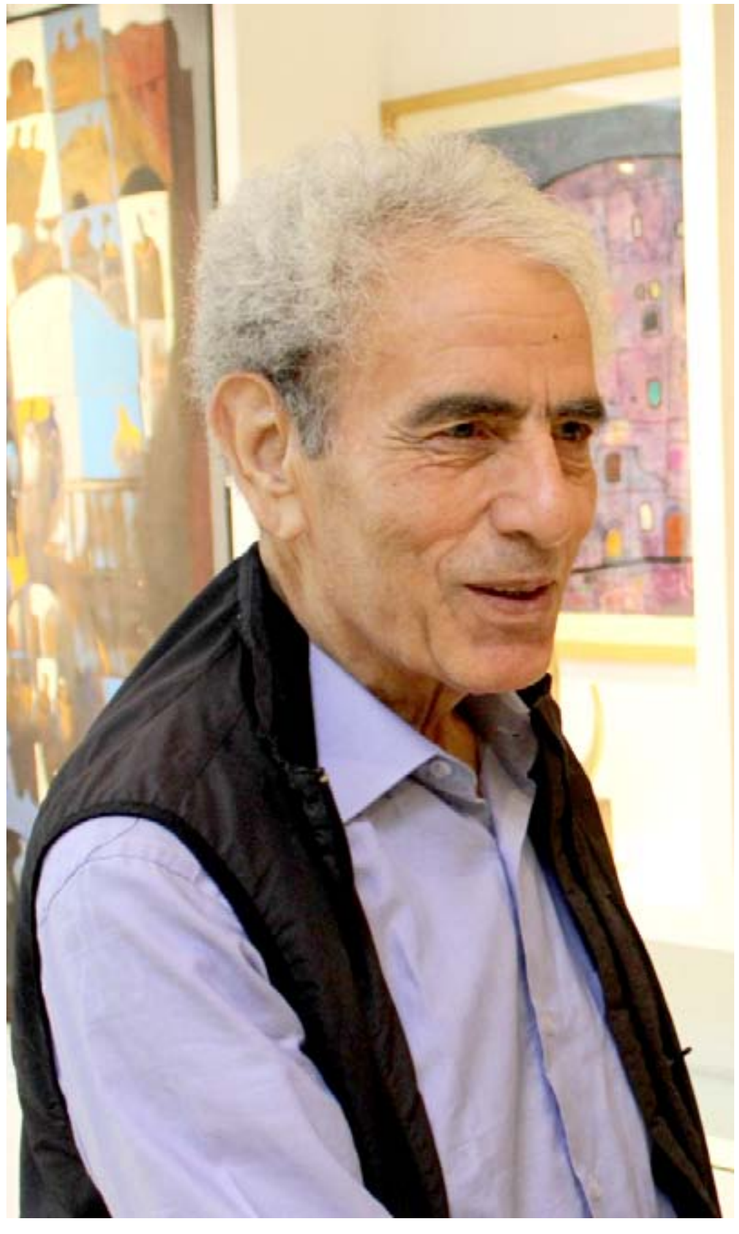

وفد الشاعر البدوي من الحسكة، مسقط رأسه، إلى دمشق بعدما أنهى دراسته الثانوية، لكنه ظل يحمل في دخيلته كل ذكريات الماضي الجميل وحياة أسرته التي كانت تتنقل بين قرية وأخرى ترعى أغنامها وتقطن في أحيان بيوت الشعر. انتقل بندر الفتى من مدرسة العشائر إلى مدرسة الغسانية فإلى جامعة دمشق شاباً متحمساً يبحث عن الدفء والحب في مدينة كبيرة وجد نفسه فيها واحداً من شعراء أرصفتها وزواياها، مثله مثل سائر رفاقه الشعراء الذين يجايلونه. لكنّ هذا الشاعر الذي بدأ كلاسيكياً ملتزماً الوزن والقافية ثم انفتح على القصيدة التفعيلية التي راجت في الستينيات، كان يرسل قصائده من الحسكة إلى مجلات عدة سورية وعربية، وكانت تنشر له من دون أن تعرف من يكون، ومنها مجلة "الأديب" اللبنانية و"العربي" الكويتية و"المعرفة" السورية و"الآداب" البيروتية التي كانت تخوض حينذاك معركة القصيدة التفعيلية أو ما يسمى "الشعر الحر" القائم على نظام التفاعيل، ثم في "الثقافة المغربية"... لكنّ الشاعر الشاب ما لبث أن تحرر من القصيدة التفعيلية بعدما استتب له المقام في دمشق وأصبح واحداً من شعرائها الجدد الذين أعقبوا أدونيس الذي لم يقم كثيرا في دمشق، ومحمد الماغوط الذي رافقوه وجالسوه، وتأثروا به شاعراً وناثراً و بثورته على الشعر التفعيلي لا سيما بعد انضمامه إلى مجلة "شعر" التي كان أسسها الشاعر يوسف الخال في بيروت، وغدت موئل الشعر الحديث في تجلياته كافة وخصوصاً قصيدة النثر.

الشاعر المستقل

شارك بندرعبد الحميد مع رفاقه في تأسيس موجة شعرية جديدة، متعددة المشارب والهموم، لكنها لم تخلق تياراً محدداً مرتبطاً بنوع معين أو بمدرسة معينة، بل كانت الموجة هذه مفتوحة على التحولات الشعرية العربية والعالمية التي كانت تصل أصداؤها إلى دمشق. بعض الشعراء كان أثر الشاعر أدونيس واضحاً في قصائدهم وبعض آخر تأثر كثيراً بشاعر "حزن في ضوء القمر" وبشعراء مجلة "شعر" وثورتها وبعض الشعراء العرب مثل بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي وصلاح عبد الصبور وسعدي يوسف وبالشعر السوريالي والشعر الاشتراكي وسواهما. وفي مثل هذا الجو من التأثر والتبادل الشعري والثقافي، ظل بندر نسيجٍ وحده، يعيش في موقع خاص به، منفتحاً على كل التيارات ولكن غير منحاز إلى أيّ منها. ولعل هذا الحياد هو ما جعل من الصعوبة تصنيف تجربته ضمن اتجاه أو انتماء. شاعر يكتب بحريةٍ، وعلى طريقته، شاعر ملتزم حيناً وسوريالي حيناً، صوفي وحسي، رمزي ورومنطيقي، هادئ ورؤيوي، ينأى عن التجريب المبالغ فيه وعن التجريد والانفعال. حتى قصيدة النثر كتبها على طريقته معتمداً لغة هي لغته. لكنه استفاد لاحقاً، عندما بدأ اهتمامه بالسينما، بالجماليات السينمائية والأبعاد البصرية ووظفها في صلب صنيعه الشعري. وكان يفاجئ القارئ أحياناً باستخدام أسماء ممثلين وممثلات في السينما كان يحبهم ويحبهنّ، عطفاً على بعض التقطيع المشهدي في بعض القصائد.

اكتشف بندر عبد الحميد السينما بعمق خلال سفره لدراسة الصحافة في هنغاريا عام ١٩٧٩ فشاهد الكثير من الأفلام التي كانت ممنوعة في سوريا البعث، والتحق بأحد النوادي السينمائية وطوّر ثقافته في هذا الحقل وعمّقها. وعندما عاد إلى دمشق سرعان ما التحق بهيئة تحرير مجلة "الحياة السينمائية" وواظب على العمل فيها سنوات. ثم أصدر سلسلة مهمة جداً وفريدة من نوعها هي سلسلة "الفن السابع" تغطي كل نواحي الفن السينمائي وأبعاده وجمالياته وتقنياته وأبرز المخرجين والممثلين والتجارب القديمة والحديثة والسيناريوهات. وبلغت السلسلة نحو ١٦٠ كتاباً بين الترجمة والتأليف، وشكلت مكتبة رائدة وفريدة في عالم الثقافة السينمائية واكتسبت شرائح كبيرة من القراء العرب. وكان بندر ناقداً سينمائياً قديراً، تابع حركة السنيما العالمية والعربية الجديدة والحديثة وكتب عن التاريخ السينمائي والرواد مخرجين وممثلين. ولعل كتابه "ساحرات السينما... فن وحب وحرية" الصادر عام ٢٠١٦ عن دار المدى يعبر عن شغفه الكبير بالسينما وقد قدم فيه ١٤٥ نجمة سينمائية من جنسيات ومراحل مختلفة. وركز على السيرة الذاتية لكل نجمة وأهم أدوارها السينمائية، مع مختارات من أقوالها. ومنهنّ: كلارا بو، بولا نيغري، غريتا غاربو، ماري بيكفورد، ريتا هيوارث، مارلين مونرو، جين تيرني، أغنيس مورهيد، جون أليسون، أودري هيبورن، بوليت غودار، نورما تالماج، مورين أو سوليفان، نورما شيرر، دونا ريد، لانا تورن. يُقرأ هذا الكتاب بمتعة، فهو يجمع بين سحر السيرة وسلاسة الأسلوب وجمال السرد. وعمل بندر في حقل النشر مديرا لدار المدى في دمشق طوال عشرين عاماً، فكان يشرف على اختيار الكتب العالمية لتترجم الى العربية، إضافة الى الكتب العربية.

توقع المأساة

أما شعرياً فلم يكن بندر غزيراً جداً أو مكثاراً كما يقال، كان يكتب بهدوء، حين يجد نفسه جاهزاً للكتابة، ولم يكن يسعى إلى الافتعال والتركيب بل حافظ على العفوية والرصانة. وكان كما يقول ينتظر اكتمال الديوان مهما طال الانتظار فينشره. أما دواوينه فهي: "كالغزالة كصوت الماء والريح" ١٩٧٧، "إعلانات الموت والحرية" ١٩٧٨، "احتفالات ١٩٧٩ "كانت طويلة في المساء" ١٩٨٠، "مغامرات الأصابع والعيون" ١٩٨١، "الضحك والكارثة" ١٩٩٤. ولعل الديوان الأخير الذي صدر له عام ٢٠٠٢ حمل عنواناً غريباً وذا دلالة وهو "حوار من طرف واحد"، فأي حوار هذا الذي يكون من طرف واحد؟ أليس هو أشبه بمونولوغ في غياب الطرف الثاني الذي هو الآخر؟

في العام ١٩٨٤ نشر بندر عبد الحميد قصيدتين في مجلة "الكرمل" التي كان يرأس تحريرها الشاعر محمود درويش، وكان عنوان إحدى القصيدتين "موت الرجل البدوي"، وفيها بدا كأنه ينتنبأ بما حصل أخيراً من مآس في العالم العربي وسوريا خصوصاً، فيتحدث عن "الثورة المستديرة التي تقتلنا" وعن العباءة العربية التي "نصفها علم ونصفها كفن"، ويذكر "القبائل التي تأكل أبناءها". ومما يقول: "هنا الشرق /لا الشمس تأتي/ ولا الصنم المتحجر ينهض من نومه/ يذبحون النساء وبعض الرجال". ولعل شاعراً توقع مثل هذا المصير العربي كان له أن يتألم بصمت إزاء المجازر التي ارتكبها نظام البعث في سوريا والخراب الذي أحدثه في المدن والقرى والدم الذي أراقه بلا رحمة. عاش بندر المأساة السورية متألماً وموجوعاً وشبه منعزل، وحاول أن يقاوم بصبر، عبر الشعر والسينما والعمل الثقافي الدائم وفي ظنه أنه يحاول مثل بعض الشعراء والروائيين والفنانين الذين لم يختاروا المنفى الخارجي، أن يتمسكوا بالأمل، أحقيقة كان أم وهما.

بندر عبد الحميد

علاء المفرجي

كنت اقرأ له سنوات الثمانينيات قبل أن أعرفه شخصياً في المجلات الثقافية السورية التي استحوذت على اهتماتنا، مثلما كان لها دور كبير في الوعي الثقافي العربي؛ مثل (الآداب الاجنبية، والمعرفة)، بل وتعمدت أن اجمع الكثير من مقالاته في الأدب والفن، ذلك إنه كان ذو ثقافة موسوعية متنوعة ويكتب بطريقة التعريف فيما يكتب.

لكن علاقتي ببندر عبد الحميد توثقت يوم عملنا في (المدى)، أنا في بغداد حيث صحيفة (المدى) في بداية تأسيسها، ومتابعة ماتنشره المدى من كتب، وهو في الشام في دار النشر، وكان من الطبيعي أن تترسخ علاقتنا التي يؤطرها عشقنا المشترك للسينما.

ومنذ ٢٠٠٩ وخلال مشاركاتنا في مهرجان أبو ظبي السينمائي، كنا نلتقي هناك ونتحدث عن الثقافة وكان هو مسكوناً بمتابعة ومحبة الرموز الثقافية العراقية، فاكتشفت في بندر الانسان الذي يجمع الى ثقافته الطيبة الشامية، والهدوء، شاعراً وكاتباً.

كان بندر عبد الحميد مقبلاً على كل ماهو في صميم الثقافة، وفي الوقت نفسه محباً في علاقاته الانسانية، وليس غريباً أن يتعلم القراءة والكتابة قبل أن يدخل المدرسة، ويبدو أن طفولته مع عائلته التي كانت تتنقّل في المنطقة المحاذية للحدود العراقية بين سهل سنجار في الربيع، وتل براك في الشتاء، لتسكن موقتاً في بيوت شَعر وترعى أغنامها، تنطوي على الكثير من المصاعب، فالطريق الى المدرسة والذي يقطعه سيراً وهو يمتد الى ما يقرب من عشرين كيلومتراً... كل ذلك جعل من بندر شخص يجالد، وهو ما أكسبه تلك الروية في التفكير، والهدوء.

انخرط منذ بداية السبعينيات من القرن الفائت في هموم الكتابة والأدب، حيث عمل في الكثير من الصحف.. قبل أن تسنح له فرصة الاستزادة في الصحافة في دورة في هنغاريا عام ١٩٧٩ ليتفرغ بشكل كامل للكتابة والعمل فيها..

لعب بندر عبد الحميد دوراً كبيراً في إشاعة الوعي السينمائي، حيث كان من المؤسسين لمجلة (الحياة السينمائية) هذه المجلة العتيدة والتي مازالت تصدر حتى الآن، في الوقت توقفت الكثير من المجلات السينمائية العربية، فضلاً عن رئاسة تحرير سلسلة الفن السابع، التي تعد مرجعاً مهماً لكل عشاق السينما.

قالت لي د. غادة العاملي المدير العام للمدى، يوم غادرت الى بيروت لإجراء عملية في القلب، برعاية رئيس مؤسسة المدى، اخبرتني: "ستجد في انتظارك بندر عبد الحميد في نفس الفندق"، وكانت بالنسبة لي مفأجاة عظيمة، كم أفرحني ذلك وأزال عني الخوف والقلق من العملية، حيث لازمني قبل إجراء العملية، نتسكع في شوارع بيروت وحاناتها قبل أن أدخل الى المستشفى.

وقبل أن ارسل مخطوطة كتابي (أفلام السيرة الذاتية) للنشر في المدى مرَّ عند بندر الذي أصرّ من باب المحبة أن يكتب له مقدمة، بل ويضيف الى العنوان عبارة (تصوير المشاهير من زوايا مختلفة)

وطلب مني عند صدور كتابه (ساحرات السينما) أن اقرأه وأكون أول من يكتب عنه، وكان ذلك، حيث نشرت قراءة مفصلة للكتاب.

برحيل بندر عبد الحميد، فقدنا نحن المعنيين بالسينما واحداً من أهم القامات العربية في السينما، وعزاؤنا بما تركه من أثر في مجاله.

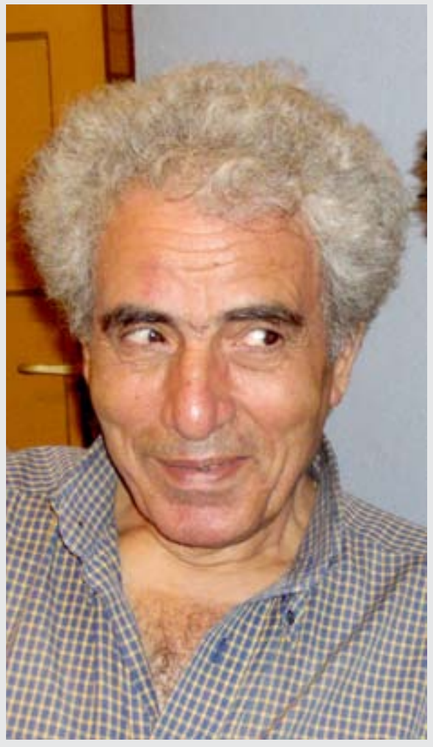

لماذا أخلفت موعدنا يا بندر؟

راسم المدهون

حين يستعيد المثقف العربي في دمشق صداقاته سرعان ما يكتشف أن صديقه الأول الذي عرفه واستمرت صداقاته هو بندر عبد الحميد حتما.

جمعتني مع الراحل بندر عبد الحميد سهرة أوائل السبعينيات، ومضى كلُ منا في سبيله.. ذهبت إلى بيروت حيث كنت أعمل وحين عدت الى دمشق قابلته صدفة في الطريق، تحدثنا قليلا ودعوته الى قهوة في الفندق الذي كنت أقيم فيه.

فجأة رأيت الدهشة والغضب معا: أنت في فندق؟ سألني بلغة فيها الكثير من التأنيب، وقبل أن أحاول الإجابة طلب أن نذهب للفندق معا ليس لنشرب القهوة هناك ولكن لإحضار حقيبتي والعودة معه الى بيته "الاحتياطي" حسب "الأصول" كما قال لي يومها حرفيا.

بندر عبد الحميد غزال صحراوي حار القلب، بارد الانفعالات، أو لنقل إنه يعلي شأن المحبة إلى الحد الذي يجعل قلبه "المضافة" الأهم والأوسع والأجمل التي زرتها يوما ما في السبعينيات وبقيت من نزلائها العمر كله. ذلك البيت الصغير في أحد الأزقة المتفرعة من "شارع العابد" كان مفتوحا دائما حتى في غياب بندر عنه، وقد تصادف أن أحضر وأجد أشخاصا لا أعرفهم وكالعادة نتعارف ونصبح أصدقاء ونقضي السهرة معا.

كل من عرفتهم مرَت بعلاقتي معهم بمحطات اختلاف وحتى غضب إلا بندر الذي لم تسمح لي سجيته المنسوجة من الحب والتسامح أن أغضب مع أنني ظللت طيلة كل تلك العقود أنتظر لحظة ما نطلق عليها عادة لحظة "غضب الحليم" التي "ينفجر" فيها ويطلق لصوته العنان كي يرعد والتي لم ألتق بها ولو مرَة واحدة وإن كنت سمعت من أحد أصدقائي أنه رأى بندر فيها غاضبا ومتوترا قبل أن يهدأ فعرف كما قال لي الصديق يومها أن المغضوب منه ارتكب أمرا جللا لم يفعله أحد مع بندر من قبل.

هو شيء من روح سورية وجمالها، أو لأقل هو شيء أيضا من بداوتنا جميعا إذ نركض في "صحارينا الكبرى" بكل ما أوتينا من قوَة حتى ونحن لا نعرف – في أغلب الأحيان – وجهتنا المقصودة وهدفنا الذي نتوجه نحوه. كان يحلو لي أن أقرأ عليه قصائدي (وهي عادة لم أفعلها سوى معه ومع الراحل سعيد حورانية) وكنت أعرف أن بندر الهادئ والعذب كنبع سيقول لي رأيا صائبا في أغلب الأحيان.

هاتفته قبل مدَة وكان بعيدا عن بيته واتفقنا أن أهاتفه في أسبوع لاحق كي نلتقي ونسهر ولكننا لم نفعل.

بندر يا صديقي لماذا أخلفت موعدنا ومضيت؟

مأوى بندر
السيّدة يسوع
الفوانيس الأربعة
الموت أستاذ قادم من تركيا
نستكمل مشينا الهادئ أنا وبندر، ملازمين الظلال في شوارع قلب دمشق. خطواته الثقيلة تريح القلب وتزيد من اتساع المدينة التي تخنقنا. لم يبدأ بعد جنون أبواق السيارات والسرافيس. نصل إلى ساحة عرنوس وننعطف يساراً باتجاه شارع الباكستان، ثم ندخل شارعاً فرعياً إلى اليمين.

مأوى بندر

جولان حاجي

بعد مطعم إسكندرون الصغير المعروف بالمشاوي،
تحت جسر الرئيس
وسط الدخان والضجيج، بندر عبد الحميد يستطلع عناوين الكتب المرمية أو المصفوفة تحت جسر الرئيس في دمشق. وراءه مجنّد داخل كولبة هاتف "براق" يتّصل بأهله، ناظراً إلى الركاب الذين يصعدون إلى باص باب توما. يتصفّح بندر كتاب "المرفأ المظلم"، قصائد مارك ستراند التي ترجمتُها ونشرتها وزارة الثقافة بتوصية من نزيه أبو عفش. يبدأ بندر كتابة تحقيق صحفي حول الفنادق والأدباء لملحق "نوافذ" في بيروت، مطلع الألفية الثالثة، بعدما قرأ قصيدة ستراند "فندق على الساحل" التي اختتم بها مقاله:

آه، انظرِ السفينة تبحر من دوننا! والريح
تهبّ من الشرق، والسفينة الأخرى ستغادر في عام آخر.
لنعُدْ إلى الفندق الساحلي حيث لا يتوقف المطر عن الهطول،
حيث الحديقة، خضراءَ ومليئة بالظلال، تهمس
أندر الهمسات: "حذارِ الانتهاك". بوسعنا أن نتجوّل،
ونزورَ الموتى الأنيقين في بيجاماتهم الرّماديّة، وبعد نزهة
بين أشجار البتولا، نستطيع الاستلقاء وسط تجاعيد السرير، ونرى
ضوءَ القمر العتيقَ يزحفُ على الأرضيّة.
سيرتجُّ
إطارُ النافذة، وأمواجُ الظلام التي ما ناداها أحد، باردةً، ضاريةً،
ستغطّينا. وسنتهاوى في سراديب النوم الموصَدة
كثيرة المرايا. وهناك، في الضوء الخافت،
سنكتشف العظامَ
والغبارَ، البقايا المريرةَ لشخصٍ
ربّما أخذنا مكانه.

الهادئ في وحدته

ستعرّفني تلك القصيدة إلى بندر. ألتقيه في دار المدى. أراه يصعد متمهّلاً من القبو إلى المكتبة. فوزي كريم يحرّر مجلة "اللحظة الشعرية" في القبو، نزيه أبو عفش وفؤاد التكرلي متقابلان يتصامتان. خالد سليمان الناصري يصمم الأغلفة، أنطون وريما يهندسان التتمات. فاتن تدير المكتبة. ابتسامة بندر ناجعة أكثر من مصابيح النيون، تضيء القاعة الظليلة وتبدّد القلق الطفيف في الهواء وتفضّ الخلافات الصغيرة بين العاملين في الدار. ابتسامة تشيع هدوء لا أفهمه، يزيدها لطفاً بياض شعره وتمهّله في الكلام والمشي. كل الصفات التي قد نتردّد في استخدامها لوصف بني آدم تناسبه: السماحة، الحلم، السخاء، سعة الصدر. أدقّق مختاراتٍ من الشعر السوري خلال القرن العشرين أنجزها محمد جمال باروت، مكتوبة بخط اليد في كلمات مرصوصة مروّسة، ولم تصدرها دار المدى أبداً. أصادف في واحدة من أوراق باروت العبارة التالية: "إنّ نزيهاً أبا عفش"، فتستفز نزيه هذه القاعدة النحوية التي لا لزوم لها. لا نكمل الكلام، وأنتقل إلى "النورس الأسود" لمنذر مصري. "لماذا لا تترجم دكتور جيكل ومستر هايد؟" يقول بندر، وأتحمس للاقتراح. أحبّ أعمال ستيفنسن كثيراً. أعلم لاحقاً أن المدقق اللغوي في دار المدى هو الشاعر غياث المدهون، نتجادل حول قواعد التمييز في النحو، ولماذا استخدمت تعابير معينة عندما ترجمت هذا العمل السكوتلاندي الكلاسيكي، وكل منا يستشهد بآيات قرآنية تدعم رأيه. بندر يسقينا الشاي، مضيفاً يصون لطافته دوماً، مبتسماً على عادته حين يتجادل الآخرون ولا يعلق بشيء.

على الرصيف العريض لشارع ٢٩ أيار، بعد المركز الثقافي الروسي، يلوح بندر بقامته الطويلة عند ناصية المقهى الذي جعلته "مسيرة الإصلاح والتحديث" بنكاً. في شارع كرجيه حدّاد، أزاح الغصون المتدلية لأشجار الفلفل الكاذب، تتوقّف ليشمّ التربنتين حين فرك بكفيه غصناً من أوراقها وعنقوداً من ثمارها الحمراء الصغيرة، وصادف على الرصيف هالا محمد وهيثم حقي ولقمان ديركي معاً فثلاثتهم مقيمون هنا في عين الكرش. يذهب بندر مشياً إلى مكتبه في المؤسسة العامة السينما. أزوره هناك. لديه دائماً اقتراحات للمترجمين، ولا يميّز بين كبير وصغير. "أنت تحبّ هيتشكوك. خذ سيناريو "النافذة الخلفية". صالح علماني ترجم "المدرعة بوتمكين" ونسي ترجمته حتى أخذتها منه، وممدوح عدوان أخذ "المواطن كين"". أفكّر بترجمة مقابلات بيتر غريناواي من أجل سلسلة "الفن السابع" نفسها التي كان يشرف على تحريرها، بعد عدم موافقة الرقابة على نشر مذكرات كييسلوفسكي.

متمهّلين نهبط الشارع الظليل الضيق الذي تقع فيه مؤسسة السينما، ومعي عددٌ من الكتب التي أهداني إياها. ننعطف يساراً ونقصد قصّاباً يعرفه بندر. يطلب منه "قطعة لحمة هبرة كبيرة"، ويرسمها في الهواء بيديه. يضعها القصاب على لوح الخشب المشقّق فيطبطب بندر عليها، ويومىء برأسه موافقاً. يضعها في كيس ثانٍ ونواصل مشينا البطيء. نقطع شارع هوغو شافيز باتجاه حديقة السبكي. الحرّ مبكر هذه السنة. بدأ أيار ساخناً. يحبّ بندر ارتداء القمصان المقلمة وقمصان "الكاريهات"، ومعه غالباً أوراق أو كتب أو كيس يحمل فيه أشياء قد لا تخطر على بال أحد، سارحاً في مدينته دمشق التي يحبّها كثيراً، متمشياً داخل مساحة محدودة لا يغادرها إلا نادراً، من دار المدى في عين الكرش إلى مكتبه السينمائي في الجسر الأبيض، عبوراً بشارع العابد والصالحية. "تعال، سأريك شيئاً"، يقول. ندخل الحديقة من جهة مختبر القطرنجي للتحاليل الطبية. نتوقف أمام مقعد قرب بركة الماء. إنه حائل اللون، وقد شحب احمراره أكثر في الحرّ. تحت شجرة صنوبر بحري، محاطين بالوخم المنبعث من ماء البركة الراكد ودخان السيارات الدبق، يقول مبتسماً، مشيراً بيده فتبرق ساعته، وتهتزّ سيجارة الجيتان الأبيض بين أصابعه دون أن يشعلها: "على هذا المقعد نامت دعد حدّاد. كانت قيلولتها هنا. كانت ترتدي معطفاً بلون... القرفة. لا. مثل لحاء هذه الشجرة"، فيلوح الوشم البدويّ على ظاهر معصمه كالوشم على يد محمد الماغوط- غصن مدقوق بإبرة في سمرة الجلد، ترجمة لوقوف طرفة بن العبد على أطلال خولة. كتاب سوريون عديدون يتحدّرون من بلدات الجزيرة وباديتها وقراها: خليل النعيمي، خليل صويلح، بشير البكر، إبراهيم الجرادي، صبحي حديدي، سليم بركات...إلخ. أمضى بندر شتاءات طفولته في تل براك قرب الحسكة، غير بعيد عن قرية جدّي، وأضفى هذا على المودّة والحميمية بعداً خفياً. كلانا كبرنا مع الشيوخ وصاحَبْنا منذ صغرنا الذين يكبروننا سنّاً. لديه ولدى نزيه أبو عفش العديد من مخطوطات دعد حداد الشعرية والمسرحية. أعلم منهما أن دعد كانت تتنزّه وحدها من الشعلان إلى المزرعة، ومعها سلة خيزران صغيرة تحوي خبزاً وخضاراً نيئة. كانت تقشّر حبة بطاطا أو حبة كوسا وتقطّعها تحت أشجار السبكي أو حديقة المدفع، ثم ترش قليلاً من الملح والفلفل الأسود على تلك الشرائح وتقضمها نيئة. كانت تستغرب من يستغرب وجباتها: "ألا يأكلها الأطفال نيئة أيضاً؟" كانت تنام لياليها أحياناً وسط الآلات في مطابع وزارة الثقافة. هناك من رأوها تستعطي رغيف خبز من فرن في ساحة التنابل، كما شوهدت مشعثة الشعر ترتدي ثوباً ممزقاً ذات مساء ممطر في سوق الصالحية. ذات مساء ممطر في بدايات ٢٠٠١، سأقرأ قصائد غير منشورة لدعد في أسبوع المدى الثقافي، تحت خيمة واسعة في المكان الذي كان معرض دمشق الدولي. المخطوط مدوّن بالخط الجميل لبندر، وفيه قصائد قليلة عنونها "ثمة ضوء". أجلس على المنصة برفقة ميسون صقر القاسمي، وأقرأ من قصائد دعد:

ما هذه المسافات والفراغات؟
وأنا وحدي أركض بلا نهاية
لا شيء سوي الذهول واللامعقول
لا شيء يحدّ من هذه المسافات
لا يد صديقة
لا يد محبة
لأتوقف
آه... أيتها الحياة المتسعة
أين جدرانك
وبواباتك؟
أين حراس الأرض الطيبون؟
أين الملائكة المبتسمون؟
وأنا أنمو تارة وأصغر تارة...
حتى السياجات والأشواك
اختفت
وانطفأت الأنوار
أهي صحراء وبلا رمال؟
أهي أحلام ونستيقظ؟
وأنا طفلة ذات شرائط ملونة
أحوك ثوبي
وأصنع دميتي
لمن أهدي كل هذا الجمال؟
والعالم مقفر... ومتسع
وأنا أركض بلا نهاية

ندماء الغرفة الصغيرة

نستكمل مشينا الهادئ أنا وبندر، ملازمين الظلال في شوارع قلب دمشق. خطواته الثقيلة تريح القلب وتزيد من اتساع المدينة التي تخنقنا. لم يبدأ بعد جنون أبواق السيارات والسرافيس. نصل إلى ساحة عرنوس وننعطف يساراً باتجاه شارع الباكستان، ثم ندخل شارعاً فرعياً إلى اليمين. بعد مطعم إسكندرون الصغير المعروف بالمشاوي، نصل إلى غرفة بندر التي لا يعلم أحد كم آوت من صداقات وأسرار حب ونقاشات جادّة ونمائم، وكم احتملت من فظاظات وشجارات، وكم استضافت من مسافرين وضائعين وصعاليك وعشاق مخذولين. يدفع الباب الذي لم يكن مقفلاً. دفعة صغيرة بالكتف تكفي لفتحه. المكان صغير لا تدخله الشمس، وظلاله ملاذ حقيقي في هذا الحرّ. ألوان الجدران زاهية وديكور الجبصين أليف. ابتسامة صاحب البيت تكفي لتُرسي الانسجام مهما تنافرت الموجودات، وتقلب الجحيم نفسها إلى حديقة. يبقى الباب مفتوحاً. يقطّع اللحم وينقعه في نبيذ أبيض ويضيف كبش قرنفل. "اسكب العرق لنفسك. هناك "البطة" والموالح". تتوسط الغرفة طاولة مستديرة تحت زجاجها صور وبطاقات عناوين وقصاصات كثيرة، في إحداها يركض بندر الشابّ وفتاة قصيرة التنورة في مكانٍ ما من هنغاريا أيام حقبتها الشيوعية. تسريحته نفسها، براءته نفسها، والفارق الوحيد هو بياض الشعر الذي صنعته السنين، البياض وربما شيء كثير من الحزن والتعب. يقول إن طبخاته تقلق البعض: "يظنونها عشوائية. أنا أطبخ بقلبي". بعد قليل، يقرع الباب ويدخل برهان بخاري، ثم يأتي نوفل نيوف وثائر ديب، ثم عابد إسماعيل وشاكر الأنباري. لا مفرّ من احتدام الأحاديث. بندر يعود إلى المطبخ ويتفقد الطنجرة. يستمع إلينا ويباغتنا أحياناً بملاحظات قصيرة تبين دقّة ما يتذكّره وتفشي عكس ما قد يوحي به طبعه. النقاشات الغاضبة لا تخترق ابتسامته المحصنة ضد الانفعالات وضد الحسد والكراهية. مائدته مفتوحة للجميع كمائدة وولت ويتمان (الذي أعاد عابد إسماعيل نقله إلى العربية، متجنّباً المآخذ على ترجمة سعدي يوسف المجتزأة)، مائدة "مهيّأة للجميع [...] المحظيّة والانتهازيّ واللصّ مدعوّون، العبد ذو الشفتين الغليظتين مدعوّ، مريض السفلس مدعوّ؛ لن يكون هناك فرق بينهم والباقين".

تحت ساعة الحائط نسخة من ديوان بندر "مغامرات الأصابع والعيون" منزوعة الغلاف، تُسمَع في بساطة قصائده وإنسانيتها أصداءُ العالم، وأصداء الشعراء الذين اقترنوا في ذاكرتي باليساريين: نيرودا ولوركا، ناظم حكمت وماياكوفسكي وأراغون... بالنسبة إلي، الشعر في مكان آخر. هذه فكرة لا تطعن في رسوخ المحبة التي أكنّها لمن ينادون بالبساطة بين "شعراء الحياة اليومية". أدرك المكانة الأثيرة لصالح الرياض الحسين. أحب مدائحه لغرف أصدقائه، وأظّن أن بندر قد نشر له بعد رحيله مجموعة "وعل في الغابة". تتشعب الأحاديث الجانبية حول المائدة المستديرة. يقول ثائر ديب ضاحكاً إن بندر الطيّب أبو الطيّب رفيق سبّاق، فقد كان سجيناً سياسياً في سجن الشيخ حسن مطلع السبعينيات. برهان بخاري، بلسان أسلسه الكحول، يروي نكات يشفعها بقهقهات بطيئة، استهلها بطرائف عن مدير مركز ثقافي كان معروفاً بالسكتات في المواضع غير اللائقة، مثل الوقوف عند الباء في اسم "زبير"، أو الدال في كلمة "فقدْناك"، أو الكاف الوسطى في "بيكنيك". يسترجع مرة أخرى حكايات زقاق شيكاغو، شارع الخمارات الدمشقي، وكيف حوّرها المحررون في جريدة "الدومري"، ثم يرفع كأس عرقه نخبَ السكران الذي خرج من خمارة هناك ليبول تحت المزراب في ليلة ماطرة ولم يعُدْ.

أعود إلى دعد حداد وفكرة طباعة أعمالها المبعثرة بين أصدقائها القليلين. لم أكن أعرف أن مروان حدّاد، مترجم مذكرات بونويل، شقيقها. لا أعرف تفاصيل قصتها العائلية وخفاياها ولا أستقصيها. ماتت وحدها داخل غرفة مستأجرة في شارع بغداد، محاطة بأدوية اكتئابها وأشباح وحشتها. ماتت رجاء طايع وحدها أيضاً، بعد رواية يتيمة هي "مانيفست الهذيانات"، طبعتها دار المدى. كنت قد سمعت أنها تربي قططاً كثيرة في عزلتها الطويلة، مثل أسماء عبد الوهاب البياتي في حي المهاجرين. قيل عنها ما يُقال عن دعد: إن قصة حب قد دمّرت حياتها. رأيتُ رجاء مرة في باص باب توما. باستعجال يلفت النظر، سارعتْ إلى الركوب وجلست على مقعد منفرد. في حضنها حقيبة سوداء ضخمة ثقيلة، أخرجت أوراقاً وبدأت تكتب وتشاجر الكلمات، بالمعنى الحرفي للمشاجرة. رأيت يديها ترتجفان، وكأنها تستعدّ لشتيمة مزلزلة، ثم سكتت وأغمضت عينيها. مات غالب هلسا أيضاً وحده في دمشق. يقول بندر: "سأريك في المرة القادمة الصورة التي التقطتها لغالب هلسا حين ذهبنا في الصباح الباكر لنفطر لدى بوز الجدي، آخر شارع الشيخ محي الدين". أتخيّل غالب هلسا برأسه الأبيض تحت الخروف المرسوم في لافتة المحل، وأتخيّل نوم دعد حدّاد ذات مساء على المسحة أمام باب بندر. كانت قد أتت على غير موعد كمعظم المتردّدين على المكان. حين سمعت الساهرين ونقاشاتهم الصاخبة وقرقعةَ الصحون والملاعق والكؤوس، خافت أن تقرع الباب. جلست بصمت وظلّت تنتظر حتى نامت على العتبة، قبل أن يتعثّر أول المغادرين من الندماء والسهارى ويرتطم رأسه بالجدار في الممر المعتم الضيق، وتوقظه الخائفةُ النائمة من سَكْرته.

قصائد مختارة لبندر عبد الحميد

النوم الكبير
لماذا كل هذا العواء
لا فائدة
كلمة مفيدة تكفي
انتهى النهار
وبدأت أوهام الليل
أستمع إلى موجز الأنباء
مئة مليون
في سجن صحراوي كبير
مساحته ثانية ضوئية واحدة
وعند البوابة الضيقة طائر ميت في قفص.
حلم في جفن
العواصف الصغيرة
مرت على الوجه واليدين
كحلم في جفن مسافر
وهذه يد دافئة
كجناح طائر غريب
تلملم أضلاعك المتناثرة
وتقرأ لك الأوراق البيضاء
وأمواج البحر
باللمسة الساحرة على الخد
وأنت نصف نائم
بالقبلة الصامتة بين الجفن والحاجب
بالكلمة التي تكشف اللغة
والحركة التي تصل الماء بالنار
حيث يتسع العش الصغير
ويصير الشتاء قميصاً دافئاً
شفتاك ثمرة يانعة
في شجرة وحيدة
في جبل صغير
في صحراء لا يعرفها أحد.
صمتاً
ما أجمل هذه الصخور المتكسرة
فوق المنحدرات الخضراء
أسمع الأغاني القديمة
للطبيعة المتجددة
وعشاقها الرائعين
صمتاً
لا تعترف بأخطائك
لأنك ستكذب مرة أخرى
أيها الولد البائس الدبق
الناشف المتذبذب الكسول الجاهل الأكول
الراشي المتجاهل المرتشي المفسد المتنمّر
المائع الفاسد
المتكبّر السارق الغبي الثري المنافق
صمتاً

ما أجمل هذه الصخور
فوق المنحدرات
عُدْ إلى الوراء
هذا طريقي
وقد لا تستحق صفعة
على قفاك
الذي يشبه وجهك.

حصار
في الداخل محاصرون
في الخارج محاصرون
والذي يرمي حجراً
يدعم الآخر
والصامت مهزوم
في ظل الحصار
الطويل
في الأرض القديمة
الطيبة.

الرحلة القادمة
قليلاً قليلا
سأبتعد عن أصدقائي القدامى
عن الراقصين والنائمين
عن الملائكة والمشاغبين
عن المغامرين والمهزومين
الذين يتغيّرون مع الطقس
والذين لا يتغيّرون
سأرمي كتبي في الهواء
وأمدّ يدي إلى يدك
ونطير بين الناس
والأشجار.

حبة قمح
أظنّ أنّ الطقس يتغيّر قليلاً
بعد أيام
إنني أشمّ رائحة المطر
ما زلت أعمل في هذا السيرك اللعين
لست مدرّباً عجوزاً
ولا حيواناً أليفاً
عندي فكرة صغيرة
كحبة قمح
تنمو بين الصخور.

الصورة الأخيرة مع بندر!

محمد مظلوم

لم يخطر لي في بالي على الإطلاق أن هذه الصورة ستكون الأخيرة مع بندر. كانت (ميرنا) تكيل التصوير بلا هوادة! ومن كل الزوايا، وتشكو من حركة يد بندر التي تلوِّح دائماً في كل الصور.
اليد التي تومئ كأنها تريد أن تشطب على كل الصور أو تشير لبعيد أو لغياب ما.
والجميع يتصوَّر بنظارته! كأننا في حفلة وداع تستدعي التنكّر بنظارات سوداء! إنها الصورة الأخيرة مع بندر إذن.
وكلّ صورة جديدة بلا بندر!
وكل سهرة وسكرة ورقصة بلا بندر.
وكل دمشق بلا بندر.
والعالم بلا غرفة بندر. ومن سمع بالغرفة (الكونية) فهي غرفة بندر!
كل الأحاديث عن جوان بابيز وفاتنات السينما العالمية وجيل البيت والشعر الجاهلي وتراث المجون وسنوات الحقبة الاشتراكية، و(الإرهاب الدولي) بلا بندر.
لقد تعبت من رثاء الخلان، وكان أجدر بي أن انشغل بهجاء هذا الزمان!
كلما تأخَّرتُ عن موعد مفترض لجلسة يتصل: (وينك...) وها أنا أتأخَّر عن الموعد ولم يتصل فأصرخ (وينك..؟)
حين كانت دمشق تعيش (المحنة) كانت غرفة بندر محفلاً يوسِّع العالم ويتسع له كقلب بندر.
مرة اصطحبنا أنا وخليل صويلح المخرج محمَّد ملص إلى غرفة بندر... فوقف للحظات عند العتبة قبل أن يدخل قائلاً: لا بدَّ من هذه الوقفة الخاشعة للعائد إلى محراب ذكرياته!، فكم من الوثنيين الذين يودعون ذكرياتهم وحياتهم اليوم في غرفة بندر!
يا للوحشة يا للدهشة البغتة يا بندر.
ثلاثون عاماً من الذكريات بيننا وضعفها من ذكرياتك يا فتى فتيان الجزيرة تختزل الآن في نوبة قبلية أخذتك إلى سفر إلى الكوكب وليس لمكان آخر. فبندر أحد أصدقائي الكوكبيين النادرين. من أولئك الذين يمتلكون تماساً كونياً غير عادي مع الأشياء والأشخاص والأفكار. وإذ توقف قلبه عن الخفقان في هذا العالم، فبالتأكيد أنه يخفق صاعداً إلى عالم كوكبي.
في آخر جلسة لنا حملت له نسخة من ديوان بوب كوفمان (عزلة مكتظة بالوحدة) فتح الصفحة الأولى وقرأ عنوان المقدمة (حين أموت لن أبقى ميتاً) ورفع حاجبه ونظر لي بابتسامته العذبة.
مع موت بندر (تيقنتُ أنَّ الموتَ ضربٌ من القتْلِ)

بندر عبد الحميد النبيل.. وداعاً

إسماعيل مروة

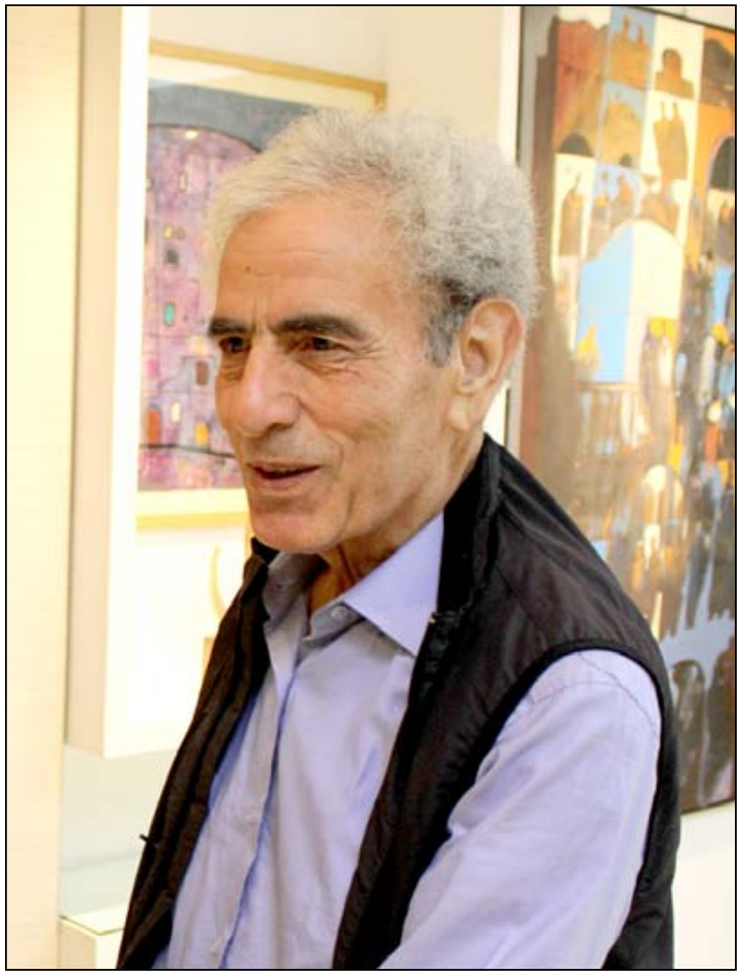

كان نبيلاً فوق حدود النبل، كريماً فوق ما يتخيل المرء، وكان شاعراً ومتفوقاً على شاعريته والشعر، وكان ناقداً عميقاً وبصمت، وكان وفياً كما لا يمرّ ببال أحد.. كان إنساناً مرهفاً ومتكاملاً وحراً.

بندر عبد الحميد مخلوق من طينة مختلفة، وروح متمردة وساكنة، بندر عبد الحميد يرحل فجأة، ويترك لوعة الفقد بيننا، سنوات وأنا أتردد مع صديقي الشاعر سامي أحمد إليه، ولم يحدث أنني زرته وحدي، مع أنني لم ألمس بمصافحته سوى الحب، وبقبلته سوى الصدق، لكن هيبته وهو الشاعر الذي قرأته بين شعراء السبعينيات كواحد من أهم الشعراء السوريين كانت حاضرة في كل لقاء.. أحببته كثيراً، وأحببت تعامله مع الأدب والحياة، وكتبت عنه زاوية، وأول مرة سمعته يقول لي: انتظر أن أقرأها.
نشرت الزاوية صباح الاثنين في الوقت نفسه الذي تمكنت الذبحة القلبية من قلب الشاعر النبيل، فلم يقرأ، ولم أسعد برأيه.
صباحاً سألني سماحة المفتي العام صديقي الغالي عن بندر بعد قراءة الزاوية وإعجابه بشخصه، ووطنت نفسي أن أذهب إلى سماحته مع بندر.. لكن الموت كان أسرع إلى قلب النبيل الجميل بندر.
قبل عشرة أيام اتصل بي بندر وقال: تعال نجلس معاً، وكانت المواعيد كثيرة، فقال ولو بعد منتصف الليل أنا أسهر، لم يسمح الوقت، وفي اليوم الثاني ذهبت إليه بمعية سامي، حاولت أن أعتذر لكنه قال لي: لا شيء، اشتقت لجلستنا فقط، في تلك الأمسية كان بندر مضيئاً ونبيلاً، وأسمعنا روائع عبد الوهاب وفايزة أحمد.. عصام التكروري وعابد إسماعيل وسامي أحمد وأنا في ضيافة الشاعر النبيل..
تواعدنا على لقاء قادم بعد أن اتصل الكبير أدونيس بنا من باريس، ليقول عبارة ذات حب:
ليتني معكم عند بندر في ليل دمشق الحميم!
تواعدنا على لقاء قادم، لنقرأ من شعر بندر ومختاراته الشعرية، كان دافئاً كما في كل أمسية، وإن تهيأ لي أنه كان أكثر دفئاً يومها، وكان سعيداً بالأصدقاء، أول مرة أمازحه وأسأله عن خزن أمام الباب، فأشار بيده وكأنه يستغرب وجود الخزن أمام الباب!
آه يا بندر كم سنفتقدك!
ما من باب سوى بابك بين المثقفين!
ما من قامة أطول من قامتك
ما من رجل في الثقافة يملك نبلك
سنشتاقك أيها الساكن في الأرض، الغريب عن محيط لم يكن يشبهك بأي شيء.

بندر عبد الحميد.. مجمع ثقافي مستقل لهواة الحب والأمل

سماح عادل

ولد "بندر عبد الحميد" في قرية تل صفوك القريبة من الحسكة عام ١٩٤٧، ويحمل إجازة في اللغة العربية من جامعة دمشق، سافر إلى هنغاريا عام ١٩٧٩ لدراسة الصحافة.
تعلم "بندر عبد الحميد" في طفولته القراءة والكتابة على يد شقيقه، لأن أقرب مدرسة إلى قريته تل صفوك بريف الحسكة، تبعد حوالي ٢٠ كيلومتراً، التي ارتادها لاحقاً، وكان يمضي ٣ ساعات سيراً على الأقدام يومياً ذهاباً وإياباً إلى أن التحق بمدرسة العشائر الداخلية بالحسكة لدى تنقل أهله بين سهل سنجار في الربيع، وتل براك في الشتاء، قريباً من الحدود مع العراق، حيث كانت تسكن عائلته في بيوت شعر لترعى أغنامها. في مدرسة العشائر نجح بتفوق، وانتقل منها إلى مدرسة "الغسانية" في الحسكة، حيث استأجر غرفة فيها ليستقل عن عائلته.
في مكتبة المدرسة اكتشف ولعه بالقراءة كعمل جاد، بعد نيله الشهادة الثانوية بتفوق انتسب إلى كلية الآداب بجامعة دمشق لدراسة اللغة العربية. وفي دمشق تعرف على حياة أخرى أكثر اتساعاً من تلك التي عاشها في مدينة الحسكة، أخذته الحياة الثقافية بدمشق وأجواء الشعراء والكتاب، وراح يكتب الشعر الكلاسيكي، ثم انتقل إلى الشعر الحديث، إلى جانب عمله في الصحافة الثقافية، التي هيأت له مكاناً مرموقاً في عالم المثقفين بدمشق، ليصدر عام ١٩٧٤ أول مجموعة شعرية «كالغزالة... كصوت الماء والريح»، التي كتب معظم قصائدها في كركون الشيخ حسن الذي اعتقل فيه لأشهر على خلفية الاشتباه بموقفه السياسي.
في الثمانينات عاد بندر إلى الحسكة، وأمضى عدة شهور في قرى ريفها البعيد قريباً من الحدود مع تركيا، ليعيش هناك تجربة مميزة، وكتب روايته الوحيدة حول تلك التجربة بعنوان «الطاحونة السوداء»، الصادرة عام ١٩٨٤، وكتبها دفعة واحدة وأصدرها دون أن يعيد قراءتها.
في السنوات الأخيرة، لم يعد "بندر عبد الحميد" مهتماً بنشر ما يكتب، خصوصاً الأدب، كان يكتب ويكدس النصوص والقصائد ريثما يحين وقت إعادة النظر فيها، وانتقاء ما يصلح للنشر، لكن الموت عاجله قبل أن يجد لتلك الكتابات الوقت اللازم لإخراجها إلى النور. وكان يرى أن «حياتنا الثقافية العربية ليست متوقفة... بل تتقهقر إلى الخلف، وبسرعة».
وعمل بعدها في حقل الصحافة، إذ درسها عام ١٩٧٩ في هنغاريا، وانضم إلى مجلة "الحياة السينمائية" ليصبح عضوًا فيها، وأسس بعد ذلك سلسلة "الفن السابع" التي تجاوزت ٩٠ كتابًا، وهي تعنى بنشر الكتب السينمائية النقدية.
كان أحد مؤسسي مجلة "آفاق سينمائية" الإلكترونية ومستشاراً للتحرير فيها، وعضوا في جمعية الشعر في اتحاد الكتاب العرب، وله عدد من الكتب بينها رواية واحدة هي "الطاحونة السوداء" ١٩٨٤، ومن مؤلفاته الشعرية: "كالغزال.. كصوت الماء والريح" ١٩٧٥، "إعلانات الموت والحرية" ١٩٧٨، "كانت طويلة في المساء" ١٩٨٠. ومن كتبه: "مغامرة الفن الحديث" ٢٠٠٨، و"ساحرات السينما" ٢٠١٩.

مجمع ثقافي..

في مقالة بعنوان "بندر عبد الحميد وردة أدباء سورية" يقول "حسن عبد الرحمن": "بندر عبد الحميد عالماً ومجمعاً ثقافياً مستقلاً زاهياً وملوناً لهواة الحب والأمل والمعرفة، لم يكن أكثر تواضعاً ولا أقل كبرياءً من وطنه سورية. رحل وتركنا جميعاً أكثر ندماً لاعتبارنا بغباء لا يحد أننا يمكن أن نراه كل يوم وساعة نشاء، نؤجل رؤيته وكأنه متاح دائماً كما عودنا، دون أن نحسب حساباً بأننا يمكن أن نفقده في أي لحظة. من أكثر مايحزن ويحرق القلب أنه كان يعيش آخر أيامه يائساً فاقد الأمل منهزماً وهو يشهد حال الوطن وما حل به. لن أنسى ذات ليلة من شتاء الثمانينيات وكنت قد أرسلت قصيدة إلى مجلة الآداب اللبنانية ونستيها كعادتي في نسيان ما أحب لنفسي، لأفاجأ بعد صدور المجلة ببندر عبد الحميد وقد قرأها بإعجاب ومحبة لبعض الأصدقاء، الذين تداولوها بدورهم. اتصل بي الصديق محمد كامل الخطيب يومها ليخبرني بفرحة بندر عبد الحميد بالقصيدة. وما أزال إلى اليوم فرحاً بفرحته تلك".
ويواصل: "كانت أولى أيام معرفتي به التي توطدت عن بعد وعن قرب كغيري ممن أحبوه وأحبهم عندما كتب مقالاً عظيماً لا أزال أذكره إلى اليوم، كان بمثابة صفعة للتكاذب والتبجح في وقته منتقداً شلة من الأدباء والصحفيين السوريين من أبناء جيله ممن كانوا يتفاخرون أمامه بقتل الغزلان ورحلات صيد الغزلان الجميلة وهم يقتحمون عزلتها البريئة ويطاردونها ليلاً في البادية السورية، بينما يزاودون ليل نهار بالشهامة والنبل والإنسانية والرومانسية والحب. مع أنه عايش وعاصر أجيالاً مختلفة من أدباء ومثقفي سورية والوطن العربي بمختلف مشاربهم الفكرية والسياسية، إلا أنه حافظ على مسافة منهم جميعاً، أحب من يستحق ومن لم يستحق منهم وأحبوه بدورهم".
وفاته..
توفى "بندر عبد الحميد" في ١٨ فبراير ٢٠٢٠ عن ٧٣ عاما.

قصيدة لبندر عبد الحميد..

سوزان المجنونة
كان الدرب طويلاً كخطوط في فناجين القهوة
مرتفعات وظلال طيور وغبار الشمس
وسوزان المجنونة
موسيقى ودم وتراب
لم نسمع من قبل صدى
لم نلمس أشجارا
لم نتعثر بزجاج.
نكتشف القبلة صمتا
نرسم جرارات وصحوناً طائرة
وخيولا من خشب عند الأبواب
نحصد قمحاً ونغني
نحصد جرحاً ونغني
في أول رحلت حب في أول يوم
في أول شهر في القرن الثامن
كانت سوزان المجنونة
تنثر بعض الأسئلة المرة
تعطي للمرتفعات الأبواب
وتعطي الفلاحين فؤوساً
وعربات نبيذ
تعطي أقلام رصاص للبحر
× × ×
– الطلقة والكأس الشاهد
والجوع مغني العصر–
× × ×
كان الدرب طويلاً كخطوط في فنجان القهوة
موسيقى والدم تراب
حيوانات تبكي في آخر ليل
أنهار لا أجفان لها
أجراس رماد
في أعياد القتل وفي أعياد الجوع
أجراس رماد
دن دن دن
دن دن
× × ×
– كان الربيع المجنون يصعد معنا إلى أرصفة
لا تصل إليها الرصاصة– سوزان النحيفة
المجنونة ليست حزينة وليست فرحة– لكنها لا تستطيع أن
تخفي علامات الذهول– بدأت العاصفة بقبلة
تحت رنين الأجراس– كانت الأجراس القديمة
تتمايل كطيور سجينة في أعشاشها– كنا
نخفي عن أصدقائنا حبنا القديم للرقص
والرسم– نتأمل بصمت عيون الناس
والحيوانات الوسيمة– كما نتأمل الصخور
والأشجار التي لا تشبه غيرها– قالت
أخسرك– لم تكن تمزح– كانت موجة
من الكآبة تعبر وجهها الساحلي–
أذبح قلبي مشتاقاً للعشب
وموسيقى الماء
أحفر بئرا في الصحراء
اسمي عينيك زهور الليل
اسمي وجهك وقوساً وكتاناً واغني
هذي مدن
من أعطاها أرصفة– آلات حاسبة– كبريتا–
برسيما– مصاصات دماء– حصالات نقود–
قطافات زهور–
من دمرها–
موسيقى ودم وتراب
يجتمع الأطفال وينتظرون القمر المجنون
يجتمع القناصون ويقتسمون رصاص الليل
ويقتسمون العشاق وعمال الورديات–
ويحتفلون بعرس النار
الفاشستية
لا تنتظري زهراً أو قبعة
من حاملة الطيارات الأمريكية
× × ×
في القرى البعيدة يعتقدون أن عنزة تطوف
على البيوت– توزع الغضب والكآبة على
جماهير الأطفال– أما سوزان فإنها تستقبل
الكآبة في مشاهد الاضطهاد والخوف
والكذب– موجة من الكآبة وموجة من الحب
المجنون– هكذا تتألق حياتها وهي تنمو
كشجرة برية لا تخاف العطش–
× × ×
نبدأ– هذا أول حرف
في لغة لا نعرفها
دادا– ماما– دا– دا
ماماباً– دا
سوزان المجنونة تهذي وتغني
عن عربات– عن مذبحة– عن
سجن لطيور الحب وسجن للأطفال–
حقول ذئاب وحقول دخان–
عن ثلج وبقايا إنسان– وبقايا مدن
وبقايا مزروعات.
عشنا ورأينا الدنيا في القرن الثامن
عصر خيول الجمهورية–
عصر المارلبورو
أنت أمير هذا الحزن ونحن الأسرى
في مدن السمك الميت
نحصد قمحاً ونغني
نحصد جرحاً ونغني
نكتشف القبلة صمتا
نكتشف الدنيا–
ما حدث فعلاً هو أننا كنا نسافر شرقاً،
نلتقي في الصباح الباكر ونشرب القهوة،
ثم ننظر إلى عيون المسافرين وأصابعهم،
في طريق النظر إلى المرتفعات البنفسجية،
ومرتفعات رمادية طفيفة كأنها مرسومة بقلم
رصاص– ننتظر أن يطلع منها فرسان
الهنود الحمر الرائعين – في الليل الموسيقى
والكتب– في النهار الخبز والشاي والكتب
– نضيع في المدينة تحت مطر الربيع – لا
نعرف مكاناً– ندخل بوابة ملتوية– نكتشف
صحراء صغيرة– نتفق على عظمة رسوم
ماكس أرنست وكاندنسكي وتنفرد سوزان
النحيفة المجنونة بحبها القديم لماتيس.
برقية حب من سوزان
– الخبز غدا
لو نمنا سنموت طويلاً –
سوزان المجنونة
عطر الصيف الراهن
عطر المرتفعات
وعطر جلود الناس
بكاء الحيوانات المنفية
في عصر المارلبورو
لو نمنا سنموت طويلاً
الطلقة والكأس الشاهد
والجوع مغني العصر
× × ×
تسمع سوزان رنين الأجراس فتهذي بقوة
عن الجسور المعلقة والحيوانات الجديدة
وحقول الذرة والحبر– تصرخ سوزان
أن الشجر ما تنمو وطفلاً يصرخ وكفا
منسية تخلع باباً موصداً منذ آلاف السنين
– تمد يدها إلى الأجراس وتهذي– أيتها
الأجراس كوني مجنونة إلى الأبد–
× × ×
كان الدرب طويلاً كخطوط في فنجان القهوة
موسيقى ودم وتراب
أجراس رماد القرن الثامن
أجراس رماد
دن دن
دن ن ن ن ن ن ن ن ن ن.

بندر عبد الحميد يموت وحيدًا

إبراهيم العلوش

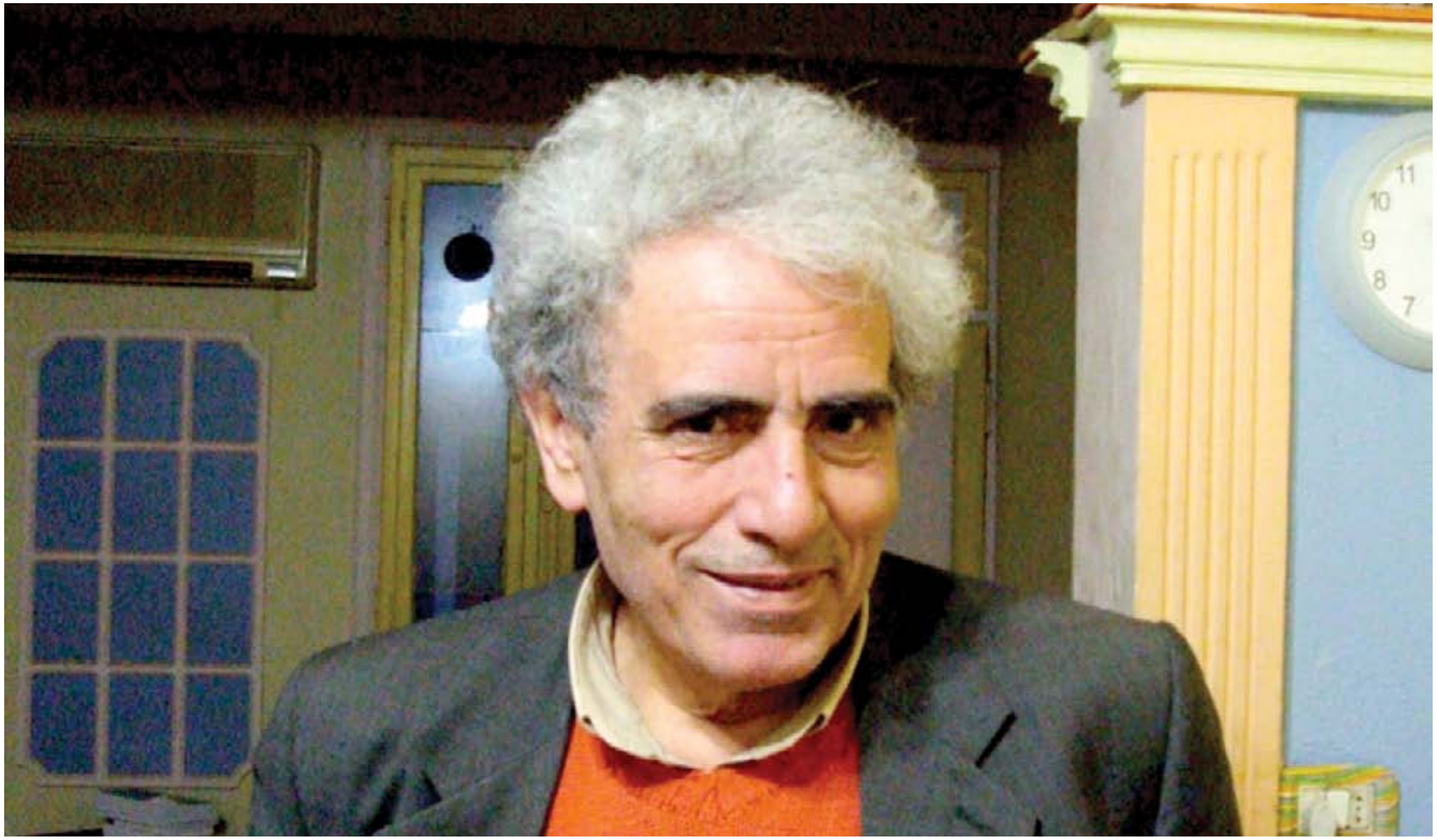

وحيدًا يموت البدوي المضياف، وهو الذي استضاف المثقفين السوريين أكثر من استضافة المؤسسات الثقافية لهم، مات بندر عبد الحميد في منزل أعاره إياه الفنان العراقي جبر علوان بعد أن كان الناس يلجؤون إلى منزله. إنه موت رمزي لمثقف سوري من جيل سبعينيات القرن الماضي، ذلك الجيل الذي عاش عند تقاطع الاشتراكية والوجودية وبدء هيمنة العسكرة الطائفية.

كتب بندر عبد الحميد (١٩٤٧- ٢٠٢٠) الشعر في مطلع حياته مثل معظم المثقفين والمبدعين السوريين الذين بدؤوا حياتهم في المدن الكبيرة، بعد أن فروا من جحيم الأرياف السورية المتروكة للإهمال والموت البطيء، وكأنما الشعر هو ملجأ الحالمين الذين وصلوا متأخرين إلى دمشق أو حلب، ممنين أنفسهم بملذات المدن وبفرصها الممكنة لمثقف فقير كان يذهب إلى المدرسة في القرية المجاورة، ويقطع الساعات ماشيًا من أجل الوصول إليها منهكًا وجائعًا وخائفًا من انقطاعه عن الدراسة بقرار نزق من أحد أفراد عائلته المتعبين واليائسين من حالتهم المزمنة في الحرمان.

كانت مرحلة السبعينيات التي نشأ فيها بندر عبد الحميد مثقلة بعار هزيمة حزيران ١٩٦٧، التي تسبب بها قادة أبرزهم حافظ الأسد. وكانت رؤى السبعينيات الفنية تكفر بكل القيم الكلاسيكية التي أدت إلى العار الذي لحق بالبلاد، فعلى صعيد الشعر، فرّ بندر عبد الحميد حتى من شعر التفعيلة، وفرّ من وصف المشاهد التاريخية المثقلة بالجلال وبالتكرار التاريخي، وكتب عن معلم المدرسة الذي يمشط شعره ويذهب إلى المدرسة مذ كان صغيرًا، وما زال يفعل ذلك بعد أن أصبح معلمًا في نفس المدرسة. وكتب عن الحب أمام محكمة أمن الدولة العليا، التي افترست الآلاف من السوريين بأحكامها.

فرّ بندر عبد الحميد من المناصب ومن الجوائز ومن النجومية التي لم ترتح إليها سجيته البدوية المتشككة بكل ما هو سائد، وبكل ما هو مستساغ من قبل الجميع، إنه من الجيل الذي غامر وبشكل نزق وحانق ضد القيم الفنية المتكلسة وضد الأيديولوجيات المتورمة في أنانيتها، فرغم أنه درس الصحافة في دولة شيوعية آنذاك هي هنغاريا، فإنه نبذ التنظير أو التبشير للشيوعية وللبطل الإيجابي ولحتمية اندحار الإمبريالية أمام العسف الستاليني المتجبر.

بندر عبد الحميد الذي جاء من أقصى الشمال السوري، ومن أفقر البقع السورية وأقلها تعليمًا، من قرية تل صفوك في الحسكة، التي أنهكها الجفاف وتناحر العشائر والقوميات والأديان، وتقاطع حدود الدول ومؤامراتها التي تتصدى لها مفارز المخابرات العسكرية، والأمن السياسي، وأمن الدولة، وما إلى ذلك ممن يغتصبون حقوق الناس في اتخاذ القرار المناسب لحياتهم بدلًا من فرض القرار المناسب لعسكر الهزيمة المتنمرين، وهم مثل ورم مفاجئ يوحي كاذبًا بالضخامة والجلال.

كان جيل بندر المتمرد تحت نيران متقاطعة من قبل الأيديولوجيا الاشتراكية المتكلسة، ومن قبل التنظير القومي المهووس بنفسه، ومن قبل العسكر الطائفي الذي كان يحيك المصير الأسود الذي يسوق البلاد إليه، بالإضافة إلى نظرة الاحتقار التي يسومه بها أبناء المدن، واعتبار أبناء الأرياف مجرد جراد يأكل بساتين الغوطة وينغص العيش في مطاعم الشام ومنتدياتها وعادات أهلها، وكأنما خلقهم الله على هذه الشاكلة مع خلقه لأبينا آدم ولأمنا حواء.

ولأن الشعر صار ميدانًا للتباهي، وصار عرضة للهزيمة من قبل فن الرواية والقصة، فقد فرّ بندر عبد الحميد إلى السينما وكتب لها طوال عقود من حياته، ومنذ تأسيس مجلة الحياة السينمائية التي كان يشغل منصب أمين التحرير فيها، وأصدر سلاسل من الكتب ومن الترجمات التي صارت مرجعًا مهمًا في مجالها عبر العالم العربي.

ورغم شهرة بندر عبد الحميد كمثقف وكرجل مضياف، فإنه مات بلا موقع على الإنترنت يستضيف لمحة عن حياته، وتكاد تخلو موسوعة "ويكيبيديا" من كلام حوله، فكل المثقفين الذين مروا ببيته لم يجدوا الوقت لكتابة عشرة أسطر عنه، وكل الكتب والمقالات التي كتبها لن تجدها في موقع على الإنترنت، لقد هاجر البدوي إلى العالم الآخر تاركًا الديار بكل ما فيها غير عابئ بذكر، ولا بشهرة، ولا بردٍّ للجميل ممن أكرمهم أو استضافهم.

غاب فجأة مثل ظاعن تاه في الصحراء، لقد محت الرياح آثار مروره، وشوش الغبار على من يحاول تتبع آثاره، لقد مات في غير بيته ولم يكن أحد إلى جواره، لم يعمل مع أجهزة المخابرات التي أمّنت حياة كثير من الكتاب والمترجمين، ولم يعبأ بتهديداتهم رغم أنه سُجن في فرع الشيخ حسن للمخابرات، ولم يكن المال يعني له شيئًا مثل كل رجل كريم منذ جده حاتم الطائي إلى آخر لحظة من كرمه حين قدّم وجبة أكلها العابر الأخير في بيته.

مات بندر عبد الحميد على خلفية عزف أوركسترا الشر بأصوات البراميل المتفجرة، وقريبًا من مشاهد أفواج المهجرين التي فاقت المشاهد السينمائية التي شاهدها أو التي كتب عنها، ومات على مقربة من سيل الأخبار المتدفقة بالموت وبالمدن المدمرة، لكن طيفه تباطأ قليلًا بعد موته الأخير ليوحّد السوريين وليجبرهم على نقطة للتلاقي عنده، ومن أجل أن يقول كلماته التي كان يرددها طوال السنوات الماضية: «لا حلّ إلّا في التغيير الشامل، وليس في إصلاحات الترقيع». فالحياة العربية «ليست متوقّفة.. بل تتقهقر إلى الخلف، وبسرعة، ما يثبت أننا منعزلون تمامًا، وبإرادتنا، عما يجري من تحوّلات في العالم».

رحم الله بندر عبد الحميد الذي مات وحيدًا.. وظل مثقفو الطوائف يقدمون استشاراتهم لفروع المخابرات من أجل أن يصبح الخراب هو البديل عن التعذيب، وعن عبادة الأسد.

بندر عبد الحميد حجز لقلمهٍ مكانا مميزا بين أهم نقاد السينما العرب

سوسن صيداوي

ويحك من أيام مطوية، تذهب ومعها كُليّات لحيوات أشخاص عاشوا معنا وتركوا منها بيننا طيب الأثر، وذكراهم واجب علينا أن نبقيها مؤبدة لأجيال قادمة. غادرنا في يوم الإثنين ١٧ من شباط، الشاعر والناقد السينمائي والصحفي بندر عبد الحميد، تاركاً شامه ورفاقه في ذهول من هول صدمة غيابه التي احتال بها القدر ليخطف أنفاسه الأخيرة بعد أن عصر قلبه الحاضن بفيض مشاعر لكل من اقترب منه وسامره وحتى عرفه عن قرب. وفي هذا المقال سنفرد لكم قراءنا جانباً من جوانب فقيدنا الإبداعية التي برز خلالها ناقداً سينمائياً عربياً، وذا أثر فاعل في تقييم ومعرفة ما أنتج من الأفلام السورية والعربية وحتى العالمية، في عينه المتابعة لأدق التفاصيل لما تمت صناعته في الفن السابع.

حياته السينمائية

تضج اليوم الأوساط الإعلامية بمن هو قادر على أن يكتب حتى اللانهاية من العبارات والجمل حول القصص السينمائية والأفلام والمخرجين مع أفضلية اختيار النجوم، وبذل كل ما أمكن من استخدام لأكثر التقنيات الإنتاجية حداثة، إضافة للمهرجانات والجوائز. ولكن نزق الكتابة النقدية من كل قيد أو تسلط لا يبرع به إلا قلة من رواد الفكر وثقافته، فليس سهلاً الغوص في أغوار النظريات السينمائية بسلاسة، ومن الخطأ أن يجرؤ صحفي على نشر قراءة صحفية لظاهرة سينمائية ما أو كتابة ذاتية عن فيلم، إلا بعد أن يتغذى وينهل الكثير من هذا النبع الدافق. على حين بندر عبد الحميد اكتسب خبرته هذه وتمرس بها، خلال سفره لدراسة الصحافة في هنغاريا عام ١٩٧٩عندما شاهد الكثير من الأفلام المتنوعة المصادر والمستويات، بالتحاقه بأحد النوادي السينمائية مطوراً ثقافته في هذا المجال.

وعندما عاد إلى دمشق انضم إلى مجلة «الحياة السينمائية» ليصبح عضواً فيها مواظباً على العمل فيها لسنوات، ومن ثم انتقل مؤسساً لسلسلة «الفن السابع» في إصداراتها التي تُعنى بنشر الكتب السينمائية النقدية، وتغطي كل نواحي الفن السينمائي وأبعاده وجمالياته وتقنياته وأبرز المخرجين والممثلين والتجارب القديمة والحديثة والسيناريوهات. حيث بلغت السلسلة نحو ١٦٠ كتاباً بين الترجمة والتأليف، أغنى المكتبة العربية بعوالم ثقافية سينمائية فريدة ورائدة.

ناقد سينمائي

عمل عبد الحميد في حقل النشر مديراً لدار المدى في دمشق طوال عشرين عاماً، وكان يشرف على اختيار الكتب العربية إضافة إلى الكتب العالمية لتترجم إلى العربية ومن ثم يتم نشرها كلها لجعل السينما والثقافة السينمائية معرفة متاحة للجميع. حتى واعتبر الكثير من أصدقاء راحلنا ومتابعيه بأن السينما والكتابة حولها كانت شغله الشاغل، بل إنها من الممكن قد سبقت الشعر، والأمر واضح في مقالاته في هذا المجال التي تؤكد جلياً سعة اطلاعه في الفن السابع مع إبراز تقاطعه مع المجالات الأخرى من أدب وشعر، حيث أصدر كتابه النقدي« مغامرة الفنّ الحديث» (٢٠٠٨)عن الفنّ في القرن العشرين، و«ساحرات السينما» (٢٠١٩)، فارداً لنفسه مكاناً متميزاً بين أهم النقاد السينمائيين ليس في سورية وإنما في الوطن العربي، مخلصا لهذا الفن المتجدد، معتبراً أن الثقافة والفنون والسينما عموماً إبداع لا ينمو إلا في ظل الاستقرار والانفتاح على العالم كلّه من مواقف حرة ورؤية مستقبلية، ليقول متابعاً: وهذه الشروط المهمة هي التي تتحكم في الإنتاج والإبداع الفني والسينمائي، ومن المؤسف أن أغلبية البلدان العربية لا تستطيع أن تنتج السينما أو تستقبلها بروح العصر. هذا والسينما العربية متعثرة، ولكن هذا لا يدعو إلى اليأس، فالأجيال الجديدة تحمل هموماً وأحلاماً كثيرة–بل أقول– أكثر اتساعاً من الأبواب المغلقة».

وعن شغف راحلنا نتابع بأنه أغنى الفن السابع بكتاباته التي شملت التاريخ السينمائي ورواده من مخرجين وممثلين. ولعل كتابه (ساحرات السينما... فن وحب وحرية) الصادر عام ٢٠١٦ عن دار المدى يعبر عن شغفه الكبير بالسينما، وقد قدم فيه ١٤٥ نجمة سينمائية من جنسيات ومراحل مختلفة، مركزاً على السيرة الذاتية لكل نجمة وأهم أدوارها السينمائية، مع مختارات من أقوالها. في أسلوبية سلسلة جمعت بين تقديم المعلومة مع سردية جميلة في التفاصيل، ومن الأسماء التي جمعها الكتاب: كلارا بو، بولا نيغري، غريتا غاربو، ماري بيكفورد، ريتا هيوارث، مارلين مونرو، جين تيرني، أغنيس مورهيد، جون أليسون، أودري هيبورن، بوليت غودار، نورما تالماج، مورين أو سوليفان، نورما شيرر، دونا ريد، لانا تورن.

تميزت كتابات الناقد والشاعر والصحفي بندر عبد الحميد بأسلوب رشيق يحيّد فيه ولعه الشخصي بالسينما ويكتب ضمن رؤيته الموضوعية لها، ويبدو الأمر جلياً في كتابه (سينمائيون بلا حدود) الذي يفتتحه بمقدمة يتطرق فيها لموضوعات تتعلق ببدايات السينما والتحديات التي واجهها هذا الفن في مراحله المبكرة ليقول: «فحينما ولدت السينما في عام ١٨٩٥ من معطف التصوير الضوئي، لم تكن تعني أكثر من بدعة معرضة للزوال، أو لعبة للتسلية، ولكنها استطاعت في مدة وجيزة أن تمتص كثيراً من الجاذبية الخاصة التي تحيط بالفنون الأخرى، وأن تؤثر وتتأثر حياة الناس، بشكل متسارع يفوق ما واكب الاختراعات الأخرى التي غيرت ملامح الحياة على الأرض». كما يسلط الكتاب الضوء على مغامرة الإنتاج في الصناعة السينمائية والسبل التي تبنتها هوليوود للخروج من أزمتها في ثلاثينيات القرن الماضي، وتناول أيضاً أعلام السينما وفنانيها، مع التطرق إلى جوانب على حيوات نجوم السينما وعن الإغراء والحرب والموت في حياة السينمائيين ومصائرهم.

وداع المُحب

رثى الصحفي والمخرج نضال قوشحة المفكرٍ بندر عبد الحميد في كلمته الوداعية قائلاً: الأستاذ بندر قامة سينمائية كبيرة جداً، حيث بدأ الكتابة في الصحافة الفنية وعلى الخصوص السينمائية في السبعينيات، وكان مرجعية لجيل وأتشرف بأنني كنت واحداً من الأشخاص الذين نهلوا من خبرته ومعرفته، ولم أتوان يوماً بأن أطرق بابه كي أزيد معرفتي حول ما يعترضني بالحصول على معلومات نقدية وسينمائية مهمة. وبرحيله نحن نخسر قامة سينمائية كبيرة جداً في سورية، فهو –بداية– أغنى المكتبة السينمائية العربية بترجمات في اللغة الإنكليزية، وهو من مؤسسي النقد السينمائي في سورية، وهنا لابد من التوقف عند مرحلتين مهمتين في التاريخ الشخصي والمهني لبندر عبد الحميد السينمائي العربي والسوري عموماً، المحطة الأولى في سنة ١٩٧٨حيث كان له شرف تأسيس سلسلة «الفن السابع» والتي هي سلسلة كتب فنية سينمائية تصدر عن المؤسسة العامة للسينما ووزارة الثقافة، وما زالت حتى الآن، وأصبح عدد الكتب الصادرة حتى اليوم تقريباً ٣٠٠ كتاب لعظماء السينما في العالم والوطن العربي وسورية. على حين المحطة الثانية لعبد الحميد أنه في أواخر عام ١٩٧٩صدرت مجلة «الحياة السينمائية» هذه المجلة الفصلية المحكمية التي صدر العدد منها ١٠٢ قبل أيام، وحالياً سيصدر العدد ١٠٣ و١٠٤ في عدد مزدوج، وهنا لابد من الإشارة إلى أن هذه المجلة نشرت العشرات من المقالات لسينمائيين كبار ونقاد منهم على سبيل الذكر: إبراهيم العريس، أمير العمري، كمال رمزي، سمير فريد... إلخ. وبالطبع مفكرنا بندر عبد الحميد كان أمين التحرير في «الحياة السينمائية» وسلسلة «الفن السابع».

المبتسم دائما

شاكر الانباري

جسد لي الشاعر بندر عبد الحميد روح دمشق الثقافية في تلك السنوات التي عشتها هناك، والرجل تاريخ، خبير في تفاصيل الواقع الثقافي لسوريا كلها، وكان بيته الصغير واحة لقاء شبه يومي، غالبا ما نجتمع فيه مساء مع شلة تتغير بتغير الظروف، تراقبنا من الجدران المزخرفة أسماء، وتواقيع، ولوحات ماض بعيد يعود إلى عقد السبعينيات. يلتقي في ذلك البيت الرسام والشاعر والمترجم والروائي والسينمائي، وكنا أنا وصالح علماني من الوجوه المثابرة على الحضور، أما الضيوف القادمون من خارج البلاد، الضيوف العرب، فبيت بندر لا يمكن إلا أن يكون محطة للتوقف وقضاء أمسية معرفية تحمل نكهة مميزة دائما. شغلت السينما بندر كثيرا وتأتي بعد الشعر في همومه، حتى صار أرشيفا متنقلا للأفلام الغربية والشرقية، خبيرا بنمط الإخراج والتمثيل وأبرز الوجوه النسائية التي احتلت الشاشة ذات يوم. معظم الأيام أعرج على دائرة السينما التي شغل فيها موقع مدير تحرير لمجلة الحياة السينمائية وأجلس هناك حتى يحين موعد الخروج، فنعود سوية إلى بيته، محملين بعدة الجلسة من طعام وشراب، منتظرين من يتوافد إلى الباب المفتوح دائما من أصدقاء مقهى الروضة، لنشترك جميعا في إعداد المائدة. بروحه السمحة، وكرمه الريفي، يدخل بندر عبدالحميد القلوب دون استئذان، وأكثر ما كان يشد انتباهي فيه تلك السمة الطفولية التي تأخذ تعقيدات الحياة ببساطة، وفيها دون شك شيء من العبثية المحببة، ولأكثر من عشر سنوات لم أر بندر غاضبا يوما، لقد كان سمحا حتى في غيظه. ومثلما لم تعد سوريا كما عرفناها ذات يوم، بعد أن تكالبت عليها الرزايا وغيبت ألقها عن محبيها، كذلك لن نجد فيها مرة أخرى شاعرنا الدمث، المبتسم دائما، بندر عبد الحميد، سليل الصحاري، والآمال المحبطة، والتمرد المجهض، والأحلام الغائبة مثل مذنب تائه في السماء.

http://www.almadapaper.net - E-mail: almada@almadapaper.net

بسمة شيخو

بندر عبد الحميد
شاعر كأنه مدينة

قلةٌ هم من يُحسدون بعد موتهم، وأظنّ بندر عبد الحميد أحدهم اليوم، فكمية المحبة التي حازها الشاعر والناقد السينمائي تكاد لا تصدّق، وهي ليست محبة مجانية بالطبع، بل إن الراحل استحقها بإنسانيته وسموه الأخلاقي، الذي جعله قِبلةً للزائرين العرب قبل السوريين وباباً مفتوحاً لكلّ من يقصده، قصصه الآن تتزاحم على صفحات مواقع التواصل الاجتماعي، وكأنّ الجميع عرفه وزاره إلاي، فأنا من سيئي الحظ الذين لم يعرفوه شخصياً، كانت أمسية في السويداء ستجمعني معه منذ شهور، لكنها أجلت حينها والآن باتت غصة كلّما تذكرتها.

ادخلوا (:)

الشاعر العراقي عبد الكريم كاصد يقول قبل أيام ليست بعيدة تحدثت مع الصديق الشاعر سامي أحمد صاحب «دار التكوين» للنشر، عبر الهاتف، فأخبرني بوجود صديق عزيز يرغب في التحدث إليّ، فكان ذلك الخبر مفاجأة سارة حقّا. إنه بندر الذي يحدثني.. بندر عبد الحميد الشاعر والصديق الذي تمتدّ صداقتي معه إلى سنوات الدراسة في جامعة دمشق،

لم أتخيل نفسي وأنا أحدثه إلا على بعد خطوتين من دمشق الحبيبة، التي أمضيت فيها أجمل السنوات، رغم مصاعبها، دارساً ومنفياً، فاشتد بي وبه الحماس لأعده بزيارتي له، وليعدني بضيافته لي، ولم أتخيل يوما خبراً كهذا الذي فاجأني أمس برحيله عنا أبداً.. بندر الجميل الذي لم يغلق بابه بوجه أحد. حتى لو كان لا يرغب في مجيء أحد، وجلّ ما يفعله هو، كما يقول عنه صديقه الراحل الشاعر مهدي محمد علي «يغمغم باستنكار ناحل: أدخلوا؟».

من لا يتذكر بندر الأليف النادر.. بندر الذي وسع قلبه الجميع، مثلما وسعت شقته الصغيرة المتواضعة الجميع، بدون أن يكون شخصاً آخر غير بندر المتفرّد، الذي لا يشبه أحداً ولا يشبهه أحدٌ، وسط محبّيه القادمين، حتى من أقصى بقاع الأرض ممن يزورونه، مثلما نزوره، بلا كلفة وكأنهم في بيوتهم النائية وسط أهلهم الغريبين الناطقين بلغات أخرى.

وأما الناقد والصحافي الفلسطيني السوري راشد عيسى فيقول:

ألف رحمة للشاعر والإنسان الجميل بندر عبدالحميد. قلّما يُرثى رجل كما لو أنه حيّ، أو شارع، ومدينة.

وداعا:

أما الناقد السينمائي العُماني عبد الله حبيب فكان يسألني عن الراحل ويطمئن على أخباره، على الرّغم من أن علاقته معه كانت أقرب إلى الزمالة، جمعتهما السينما فقد ترجم أ. عبد الله حبيبي لبريسون في سلسلة الفن السابع التي كان بندر مشرفا على إصداراتها، وقد نشر على حسابه في الفيسبوك:

وداعاً...

في دمشق، في أبوظبي، في مسقط، في ضحكتك المكتومة، في خطّك الخفور، في رسائلك الأكثر أناقة من الغياب، في احتفائك بترجمتي لبريسون (وفي اقتراحاتك الباهظة لمزيد من الترجمات)، في الموت يجعلنا نتكاثر هناك ونتناقص هنا...

وداعاً، وداعا، وداعاً بندر عبدالحميد.

حزينون كاليتامى:

أصدقاء بندر المقرّبون ملأت الصدمة جوارحهم، فكتب الروائي خليل صويلح على صفحته الشخصية على الفيسبوك (ثم غادر وحيداً- بندر عبد الحميد ذات ظهيرة-) وكأنه أنهى سيرة حياة هذا الشاعر بعبارته تلك، بعد أن أعلن يتم دمشق بوفاته؛ أما الناشر سامي أحمد فأعلن الحداد في دار تكوين لمدة ثلاثة أيام على رحيل آخر الأساطير في دمشق. الناشر مجد حيدر كتب «عشرُ سنوات من الحروب الأهلية القذرة سممت وكوبسَت أرواحنا وأوقاتنا وأحلامنا، ولم تترك لنا إلا فُتات السهر المُبتسر الأصفر، وقتلت روح الحياة في أصغر ذرات وجودنا. هذه كلمات بندر عبد الحميد حين التقيته في معرض الكتاب هذا الصيف في دمشق، بعد غياب مديد طوال سنوات الجمر. إنها تختزل عمرنا الذي مضى غيرُ مأسوف عليه متلطين خلف أوطان وهمية فاقدة للذاكرة. بندر عبد الحميد، أيّها الكائن الأثيري الأبيض، لقد انتهى الكابوس والسمُّ بالنسبة لك، أما نحنُ فما زلنا في قبورنا المُشرعة الفاغرة أفواهها نحوَ السماء».

الشاعرة رشا عمران عرفت الراحل منذ طفولتها، فهو صديق والدها الشاعر محمد عمران ولا كلمات تكفيها لتلخّص تاريخها الطويل معه؛ الشاعر نزيه أبو عفش يعاتبه: «غافلنا جميعاً – نحن أواخرَ الباقين من كتيبةِ المرشّحين للرحيل -واختطف، بدون أن ينتبه إليه أحد، ميدالية بلوغ نهاية المضمار: غلبنا في سباق الموت. لشدّما نحن حزينون.. حزينون كيتامى).

بيت شارع العابد قِبلة المثقفين:

هيثم حقّي تذكّر منزل شارع العابد. الذي ذكره كثر غيره – قبلة الشعراء والنّقاد والرسامين والصحافيين ونعى صاحبها: (صديقي الغالي.. وداعا للشاعر والناقد والإنسان الرائع.. يا للخبر الصاعق.. جمعتني ببندر صداقة ومودة استمرت قرابة الأربعين عاما.. بيت بندر الصغير في ذاكرة أبناء جيلنا، كان يجمع مثقفي السبعينيات في جلسات حوار وجدل لا ينتهي... كم هو مؤلم ألا أكون في وداعك يا صديقي... لك الذّكر الطيب والعزاء لأصدقائك ومحبيك الكثر، وأخص صديقنا الحبيب جبر علوان الذي جمعته بك في السنوات الأخيرة محبة أعرف قدرها.. وداعاً بندر... لقد غابت رقصتك البدوية الحضرية المميزة، التي كانت تبعث دائماً البهجة والفرح).

صاحب خيمة تظلّل الجميع:

الشّاعر والنّاقد بيان الصّفدي يقول في شهادته عن الراحل: «من الصعب أن نوجز الكلام في بندر عبد الحميد، إنه أشبه بظاهرة بشرية يندر أن تتكرر وسط ما هو معروف من رياء البشر، والمبدعين والمثقفين خاصة، رجل يمتلك طاقة محبة وعطاء وتسامح وكرم، تعجب كيف تجمعت في شخصه! بندر صاحب شقة صغيرة بباب مفتوح دائماً لأي طارق نهارا أو ليلا، صاحب مائدة ممدودة منذ عقود، فيها طعام وشراب يكثر أو يقل، يكون بسيطا غالبا وفاخراً أحيانا، لكنه يكفي الجالسين، حتى لو زادوا عن عشرة، لا جنسية لطارقي بابه، ستجدهم من كل مكان وقومية، ودين وانتماء سياسي. في حضرة بندر أنت مع رجل على شكل قلب مفتوح، حتى لمن نضيق بهم وبهن، لا يملك سوى أن يفتح مضافته، وأن يكون البدوي الذي يجمع بين الجميع، ويرعى طلباتهم كصاحب خيمة تظلل الجميع. مع هذا فلبندر شخصيته الفذة المنسوجة بدقة وعمق وشمولية وأصالة، فهو شاعر مميز، وناقد سينمائي وتشكيلي من طراز رفيع، وصحافي ثقافي من الصف الأول، وناشط ثقافي وراعي إبداع ذو خبرة هائلة بالساحات الثقافية العربية. بندر لا يخوض معارك صغيرة على عادة المثقفين، ويندر أن يذكر بسوء شخصي أحداً، وإذا حصل وذكر ما يعرفه من مطاعن على أحدهم، حرص على أن يكون ذلك نادرا، وفي أضيق دائرة، فهو مشغول دائماً بالقراءة والحب والصداقة والعمل، ويواجه ما عدا ذلك بسخرية عذبة أو بسمة أو تجاهل، لا يحرص على نجومية فارغة، ولا تهافت على لمعان إعلامي، ولا أنسى أنني فشلت في إقناعه بالموافقة على طباعة أعماله الكاملة، ضمن مطبوعات هيئة الكتاب عندنا، فظل يتملص من الأمر على عكس الجميع. شخصياً أعيش حياتي .كما هو معروف عني- بلا صداقات شخصية عميقة مع المثقفين، ما عدا قلة تعد على أصابع اليد الواحدة، كان بندر منها بالتأكيد، لأنني كلما ضاق الصدر، واشتدت الظلمة، كنت أهرع إليه لأعيد ثقتي بالخبز والملح والكلمة، وحتى يصيبني بعدوى الحياة. لهذا السبب، ولأنه صديق قبل كل شيء، ومنذ أربعين عاماً، فقد تهدم اليوم ركن في حياتي، وليس باستطاعة أحد أن يعيده إليّ. بندر كان أحد الذين نشعر معهم بأن الحياة جديرة بالعيش، والثقافة تستحق العناء والاحترام. رحل ليختتم قصيدته في بلد يتهدم، فكان موته شهادة على غربة تقود أرواحنا لتنام بوحشة في ثلاجة موتى، الموتى الذين ينتظرون من يأخذ بجثثهم إلى التراب الذي أحبوه حدَّ الموت».

متحف الشاعر بندر عبد الحميد

الشاعر عبد الله الحامدي يقول: لا يزال الزلزال السوري يلقي بتوابعه، ويومٌ آخر حزين برحيل الشاعر الهادئ بندر عبد الحميد، لم يكن صاخبا تحت الأضواء، ولا فوق سجادة قصائده الحمراء المتمردة، كانت قصيدته تشبهه، جزراوية منفتحة صادقة، ولكنها صادمة بكونيتها المنمنمة في عبارة، صورة، غرفة، غرفته التي سيفتقدها كل من عرفه وسيعرفه لاحقًا من الأجيال. في وطن أسطوريّ بتراجيديته وكوميديته، استطاع أن يفقد في بضع سنوات آثارًا وحواضرَ صمدتْ ضد الغزوات والحروب آلاف السنوات، تبدو من الفانتازيا المطالبة بتحويل شقة إلى متحف، وقد تحوّلت المتاحف ذاتها إلى شقق على العظم! لكننا سنطالب بهذا المتحف الصغير للشاعر والناقد السينمائي بندر عبد الحميد في قلب دمشق، حتى لو كان بندر نفسه لا يأبه بمثل هذه الحفاوة، ويحن إلى فضائه الأرحب:

أذبح قلبي مشتاقا للعشب
وموسيقى الماء
أحفر بئرًا في الصحراء.

×بندر عبد الحميد: ولد في « قرية تل صفوك القريبة من الحسكة» – الحسكة عام ١٩٤٧.

تلقى تعليمه في الحسكة، وتخرج في جامعة دمشق حاملاً الإجازة في اللغة العربية، سافر إلى هنغاريا عام ١٩٧٩ لدراسة الصحافة، عمل في الصحافة وهو عضو جمعية الشعر في اتحاد الكتاب العرب.

مؤلفاته:

كالغزالة كصوت الماء والريح – شعر- دمشق ١٩٧٥.

إعلانات الموت والحرية – شعر- دمشق ١٩٧٨.

احتفالات – شعر- دمشق ١٩٧٩.

كانت طويلة في المساء – شعر- دمشق ١٩٨٠.

مغامرات الأصابع والعيون – شعر- دمشق ١٩٨١.

الطاحونة السوداء – رواية- دمشق ١٩٨٤.

الضحك والكارثة – شعر- لندن- ١٩٩٤.

وله أيضاً رواية «الطاحونة السوداء».. وغيرها الكثير إضافة إلى كتب بحثية منها «مغامرة الفن الحديث» و«ساحرات السينما»، فن وحب وحرية» و«سينمائيون بلا حدود

manarat
WWW. almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

الاخراج الفني
حيدر الكواز

منارات
طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

http://www.almadapaper.net - E-mail: almada@almadapaper.net

مختارات من شعر بندر عبد الحميد

من يفهم شِعري يعرف وجهي

مثّلت تجربة الشّاعر السوريّ الراحل بندر عبد الحميد (١٩٥٠ - ٢٠٢٠)، إلى جوار رياض الصالح الحسين ومنذر مصري وعادل محمود، ما أسماه الناقد والباحث محمد جمال باروت، في كتابه "الشعر يكتب اسمه"، بـ"مشاغل الإنسان الصغير"، الذي رآه تمثيلًا لانتقال الشاعر الجديد من الذات إلى الآخر، وتحوّل الإنسان أو إله إلى شخص يجسّد أفعال الحياة. هنا مختارات من هذه التجربة التي آثرت التواري دومًا

١

أريد أن أنعب كالغراب
على عكاز شجرة عجوز
وأن أبكي كالأطفال
بصوت الرعد ودموع المطر.

(١٩٦٧)

نائم لا تقرعوا الأجراس..
في القلب صديد ورماد!
نائم ما عاد من حلم المسافات الطويلة،
في مراياه صدى أغنية منهوبة،
خضراء في أجفانه خفق الجديلة
وحكايا شهرزاد!

لا تبيعوا الحرج نارًا وشموعًا ساهرة..

هي ذي كفي.. خذوها راية للوجد.

(١٩٧٢)

من يفهم شِعري يعرف وجهي.

(١٩٧٢)

مطر الليل ما مرّ، وجهكَ ما مرَّ

ما بيننا الآن إلا صحارى من الصمت

هل نحن جرحان أم زهرتان على طرف الرمل والنفط؟

قهوتنا العربية من بؤسنا العربي القديم

عباءتُنا نصفها علم، نصفها كفن،
والقبائل تأكل أبناءها

والبلاد لنا -وهي ليست

لنا ذكريات المجاعات في أول القرن

في آخر القرن

والضحك المرّ والضحك المتوحش

والثورة المستديرة تقتلنا ثم تضحك

أو نتباكى، نلف الدخان ونسهر

يقتلنا الحب، متنا بكاء على الوحدة العربية

عشنا من الرمل والماء

من حولنا الجاهليون، والخيل، والتمر،
والتين، والرمل، والجامع الأموي..

صحارى صحارى

قبائل تصنع أصنامها ثم تأكلها

وقبائل مهزومة بين وادٍ ووادٍ

ولا العيسُ ماتت ولا نحن عشنا.

هنا الشرق

لا الشمس تأتي

ولا الصنم المتحجر ينهض من نومه

يذبحون النساء وبعض الرجال

هنا الصحف العربية – مثل القبائل

لا النمل يكتبها في الصباح

ولا الرمل يقرأها في المساء.

سنضحك، نرقص، متنا بكاء على الوحدة العربية..

نضحك حتى الثمالة

كيف تموت وتترك قهوتنا

قصصَ الحب، أحلامنا بالكتابة

أوهامنا، شوقنا للقراءة والشاي؟

أوراقُنا حلمٌ

وهي بيض وسود كأجنحة الطير

أجفاننا احترقت

ثم تضحك تضحك

بعض الرمال لنا

والليالي لنا

إذا لم نمتْ في صباح جميل..

إذا..

(١٩٨٤)

من أين جئتم بكل هذه الأحجار؟

كيف بنيتم هذه القلعة؟

ألم تجدوا سجنًا آخر

تعزلون فيه مصاص الدماء؟

(١٩٨٦)

ثمة شجرة صغيرة في الصحراء

تشبه ظلكَ،

على الأرض التي تحبُّها

(١٩٩٠)